وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

رجال وقبائل

لينا هَوْيَان الحسن

رجـال وقبائـل

وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب
مديرية التراث الشعبي
مشروع جمع وحفظ التراث الشعبي
(٤٩)

رجـــال وقبائـــل

لينا هَوْيَان الحسن

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة – دمشق ٢٠١٣م

رجال وقبائل / لينا هويان الحسن .- .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٣ .- ١٥٢ ص ؛ ٢٤ سم.

(مشروع جمع وحفظ التراث الشعبي؛ ٤٩)

١- ٩٢٩,٢ ح س ن ر ٢- ٣٠٧,٧ ح س ن ر
٣- العنوان ٤- الحسن ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

(من لا يحب منطقته الجغرافية، وبلدته، وقريته، وقطعته الأرضية الصغيرة، وبيته، مهما كان ذلك البيتُ بسيطاً وفقيراً، يصعب عليه كثيرا أن يتعامل باحترام مع الآخرين: إذ ما أن تفقد كل الأشياء قداستها، إلا ويلفَّ الوجود غمام مطبق..).

ارنستو ساباتو

(إن فكرة الميراث الخاص وتطبيقه على الحاضر، هي التي طالما ملأت عقلي، وعنها بالذات إنما أريد الكتابة، على الرغم من أن صعوبة الموضوع وتعقيده يرعبانني، ولن أستطيع ما هو أكثر من ملامسة سطحه الخارجي. لن أستطيع أن أعدل معه ولكنني من خلال المحاولة قد أكون قادراً على أن أعدل بعض الشيء مع نفسي عن طريق تنقية عقلي بالذات..).

جواهر لانهرو

(من الخطر أن تكون وارثاً. ليست حكمة القرون وحدها هي التي تتفجر فينا، إنما أيضاً ألوان جنونها).

نيتشه

(يعتبر النظام السياسي عند البدو بمنتهى الغرابة، لأنه يعطي مثالا راقيا لأفضل أنواع الديمقراطية في العالم، وربما ديمقراطية البدو هي الوحيدة التي تتحقق فيها الشعارات التالية: الحرية، المساواة، الأخوة.

الحرية عند البدو هي أساس النظام كله، ولانقصد الحرية القومية فحسب، ولكن الحرية الفردية كذلك التي لا تقيدها أي ضوابط كضوابط الولاء للملك أو الدولة، البدوي لا يدين بشيء لا يقرره على نفسه، وهو يستقل بالعمل الحر الشخصي وبالاهتمامات الخاصة. فإذا ما استاء البدوي من شيء يمكنه أن ينعزل عن المجتمع الذي ينتمي إليه في أي وقت دون أن يُسأل. أو يخاف من عقاب. ومكانة البدوي في مجتمعه تذكرنا بأنه عضو في ناد أكثر من كونه من مجتمع أو رعية. ولكن طالما أنه من قبيلة، فعليه أن ينصاع لأحكامها وضوابطها، وعليه أن يشارك في كل المداولات التي تجري من أجلها. وإذا ما رأى آراءه مهملة فله الحق أن يتحرر من سلطتها إذا كانت تحول دون استقلاليته. ولن تجد بدوياً في البادية يتذمر أو يشتكي من الظلم لأن مواجهة ذلك وعلاج الظلم تبقى معطياتها دوماً بين يديه).

الليدي آن بلنت - قبائل بدو الفرات عام ١٨٧٨ م

(يفخر البدو أشد الفخر بحريتهم، ويمتلكون شعوراً جامحاً باستقلاليتهم. ولا يوجد ما يعلو في نظرهم على الحياة في الصحراء مصدر احتقارهم لأي إكراه، وأي حكومة وضرائب، وللخدمة العسكرية، ومنبع نفورهم من الاستقرار والعمل المنظم. والحق يقال إن البدوي لا يتخلى إلا في الحالات القصوى، عن بداوته..).

أوبنهايم - البدو ج١ ص٨١

ما يشبه مقدمة

«مرض الأرشيف»

هل حقاً هنالك ذاكرات قوية وأخرى ضعيفة ؟ وهل حقاً وكما يعلن جاك دريدا في واحدة من عباراته الإشكالية: (يمكننا أن نرى في المبدأ الآمر للأرشيف، موضوع ذاكرة بامتياز، مبدأ توحيد، تحقّق وتصنيف) ذلك ما ذكره تماماً في مؤلفه الشهير «مرض الأرشيف».

متى يكون التاريخ قابلاً للجرد ؟ هذا تساؤلي الخاص والمنطلق من قناعاتي الخاصة بهذا الشأن والتي أطرحها فقط من باب السؤال. هل يحتاج الماضي إلى التنظيم ؟ هل تنظيمه مهمة منجزة فعلاً ؟

هل ثمة مرض يسمى «أرشيفات الأنا أو الشغف بالسيرة الذاتية»؟ كيف يمكن لمحاولة «متواضعة» كمحاولتي هنا في هذا الكتاب، أن ترسم مجدداً ما هو مبعثر في الواقع ؟ وأن أحوّل ماضياً مصنوعاً من القطيعات وضروب عدم الاستمرار إلى خط يصل بين ما هو متناثر ؟

بداية، لم أتكبد عناء نزع طباعي «الروائية»، حين يتيح لنا الأدب أو الأصح، يسوّغ لنا كتابة «تاريخ جميل» وبنفس الوقت يؤدي النص وظيفة الدالّ على الهوية.

منطق الأدب، قد يسمح لي بتلخيص الماضي، لكن هنا في عمل قريب من حالة «التوثيق» يكون الأمر مشبوهاً إذا لم أتوخَ الدقة والحذر والموضوعية.

بصراحة، الأفضل تسمية مقدمتي: «تواطؤ» حتى لا يكتشف أمري وأضبط متلبسة بالإعجاب سلفاً بمن يملؤون كتابي هذا بصيحات دشنت حروباً وغزوات.. معجبة ومفتونة بكل تجاوزاتهم وجنونهم ولا منطقيتهم و«أناهم» الشاهقة.. «الأنا» التي لا تعرف الانصياع قط وتحترف: الإقدام..

«بارودكم بخشوم ربعي نشوكي» جزء من قصيدة لطراد الملحم شيخ قبيلة «الحسنة». لطالما رددها والدي لكن ربما لم يقصد أن يرددها على مسامعي أنا بالتحديد. لكني حدث والتقطتها، تماماً كما حدث مع عالم «البدو» بكامله من خلال خارطة خفية خططها القدر ونثر بعض معالم المستقبل عبر إشارات.. و«بارودكم بخشوم ربعي نشوكي». كانت واحدة من تلك الإشارات التي زرعت في دماغي ووجداني «الإعجاب» بمنطق التحدي، الأعمى، أحياناً..

اعتمدت الوثيقة، حتى لا أكتب بوصفي ابنة قبيلة الجُميلة الوائلية التغلبية..

من الغبن تجاهل التاريخ القبلي للبادية السورية، وخاصة إذا عرفنا أنه خلال فترة الاحتلال العثماني، لم يستطع أي من سلاطينهم بسط سيطرته على أي بقعة في البادية، حتى القبائل المتاخمة لحواضر الشام مثل دمشق وحلب وحماة وحمص لم يسجل التاريخ يوماً أنها رضخت للحكومة العثمانية. وكل الرحالة والمستشرقين يجمعون على أن سلطة العثمانيين لم تتجاوز خلال تلك الفترة الطويلة مسافة أربعة كم شرق دمشق أو حماة أو حمص أو حلب. وذلك ما سيلمسه القارئ بوضوح خلال تتبع سير الشخصيات المذكورة في الكتاب. زعماء أحرار بكل ما للكلمة من معنى، والطريقة الوحيدة التي أجدت نفعاً في التعامل معهم من قبل الأتراك: رشوتهم بالصرر المترعة بليرات الذهب وبمنحهم شتى الألقاب «بيك.. باشا..».

سِيَرٌ كثيرة، سمعتها وازدحمت ذاكرتي بأسماء لا أميّز بالضبط بينها، فأخلط سيرة أمير من أمراء الموالي، بسيرة شيخ عشيرة من عشائر الحديديين.. كان محقاً ذلك المقدم الفرنسي الذي ألهمته البادية السورية بتأليف كتاب عن قبيلتين متقاتلتين وسماه: «قتال بين قبيلتين غنامتين»، وحدث أني ترعرعت في وطيس الحرب الباردة التي استمرت بين هاتين القبيلتين الكبيرتين، حتى بعد عقود من انتهائها عملياً حين وضع الفرنسيون حداً لها عقب عدة مؤتمرات قبلية، وصلوا بعدها إلى ما يشبه تسوية رضي عنها الطرفان. حدث وأني خرجت إلى هذه الحياة وأنا أنتمي إلى قبيلة صغيرة – نسبياً- هي عشيرة «الجُميله الوائلية التغلبية»، عشيرة تنتمي إلى قبيلة جيس «قيس» الكبرى التي انقسمت بشكل كبير وتوزعت – حالياً - بين العراق وتركيا «أورفة وأضنة وديار بكر» وقبيلتنا ما هي إلا عيّنة صغيرة من قيس الكبرى حافظت على وجودها وجمعت نفسها ابتداءً من مطلع القرن العشرين حين قرر شيخها «محمد الصويلح الحسن» جمع شملها في منطقة جغرافية واحدة، وحدث أن كانت هذه المنطقة في إهاب جغرافيا قبيلة الحديديين .

فثمة اتفاق قديم مبرم بين «الجُميله» و«الحديديين» يشبه حلف صغير تبرمه أي دولة صغيرة مع دولة عظمى لحمايتها في حال تعرضت لخطر جسيم. بالمقابل كان على قبيلتنا أن تعلن ولاءها للحديديين فتعادي من يعاديهم وتصالح من يصالحهم. وظلت قبيلتنا مستقرة في ظلّ ذلك التحالف. خَلَفَ محمد الصويلح ابنه جاسم المحمد الذي جمع بين رئاسة القبيلة والقضاء. في منزله تمّ إنهاء منازعات شهيرة عرفها تاريخ المنطقة القبلي. وهناك لطالما رأيت سيارات المتخاصمين تجتمع أمام منزل من كان "عمّي" رحمه الله "جاسم المحمد" وسمعت أطراف قصص كثيرة تتداولها النساء بينهن وهن

يسردن الحدث كل واحدة على طريقتها فيما يحركن المغارف في قدور ضخمة لإعداد الطعام للقضاة والمتنازعين. وكثيراً ما كانت تتوتر الأجواء فجأة وتجهز الأسلحة ويتلثّم رجالٌ لم يعجبهم الحُكم النهائي..

لم تكن سهلة مسألة انتقاء الشخصيات التي أريد التحدث عنها في هذا الكتاب. لهذا لم أنتق، أو أختار، تركتهم يفرضون أنفسهم. القاسم المشترك – تقريباً– بين "رجال وقبائل" – كما ستلاحظون – أنهم لم يَمنحوا فرصة للموت أن يباغتهم على الفراش، فرصة لم يبحثوا عنها بالمطلق.. كلهم يختصرهم "رجلٌ واحد يمتطي ظهر فرسه وينطلق وهو مدرك لحقيقة أن أنفاسه قد تخونه في الهواء الذي يجهله..

مصالح القبيلة أولاً، منطق كل زعيم قبيلي. رآهم التاريخ انتهازيين، بسبب نوع من "براغماتية" فطرية أو تلقائية فرضتها عليهم قساوة البوادي والصحارى.

جميعهم في هذا الكتاب : إما أمراء أو شيوخ أو عقداء حرب..

غالب المعلومات الموثقة عنهم دوّنها الاستشراق مدفوعاً بدوافعه الثلاثة: الديني، الاستعماري، العلمي.

حتى لا يعترض أحد على اعتمادي تقارير المستشرقين الذين كانوا في غالبهم جواسيس لحكوماتهم، لا بد من الإشارة إلى حقيقة أنه، لمدة أربعمئة سنة تقريباً لم يجرؤ ويقتحم الصحاري أحد غير المستشرقين، وثمة فجوات زمنية لم تُعبّأ إلا بأقلامهم موثقة لأوضاع وقدرات القبائل الحربية والاقتصادية والاجتماعية، ويمكن الوثوق إلى حد كبير بما قدموه من معلومات كُتبت بعد معاينات ملموسة ومباشرة لأن غالب تلك التراسات رُفعت إلى حكومات استعمارية كانت تطلب الحقيقة لتقف على إمكانيات وواقع أرض تخطط لاستعمارها، ونادراً ما تتوفر أسباب مغرية للجاسوس تدعوه للكذب على

حكومته وهذا أمر يلمسه الباحث في تتبع المعلومات والمقارنة ومثال ذلك المعلومات التي تضمنها كتاب البدو بأجزائه الأربع للبارون الألماني أوبنهايم، والتي تقاطعت بشكل كبير مع المعلومات التي جمعها العلامة أحمد وصفي زكريا أهم من وثق أوضاع عشائر بلاد الشام في النصف الأول من القرن العشرين، وذلك من خلال جولات طويلة زار خلالها أغلب بيوتات رؤساء القبائل كما سأشرح لاحقاً.

سيكون جلياً للقارئ أن شيوخ البدو، لم يصبح أيٍ منهم كذلك، إلا بامتلاك شخصية مميزة تؤهله للقيادة، كما ستلاحظون خلال قراءة سيرهم الشخصية. البدوي لا يقبل أن يُولّى عليه من لا يصون مصالح القبيلة ويقودها بكفاءة عالية، وإذا ما حدث ومات شيخ قوي وخلفه ابن ضعيف سيُنحى جانباً ويأخذ السلطة أحد أبناء عمومته الأقوياء.. عالم البداوة متحالف مع القوي والذكي، لأن مصير القبيلة متعلق بمميزات شخصية يفترض أن تتوفر بمن يقودهم. حرصهم الشديد على مصالح القبيلة وهيبتها، نعم "الهيبة"، ليست المصالح فقط المطلوبة، أيضاً، الهيبة.. لا انفصال بين المفهومين - أمرٌ وضعهم دائماً في حالة حرب أو مواجهة. ثمة ملاحظة مهمة في شأن تاريخ العشائر، فالزخم والثراء في تاريخ كل عشيرة يحدده أمر واحد: الحرب، كلما كانت القبيلة ذات نزعة حربية وحفل تاريخها بالحروب والمعارك والمواجهات الدامية، كلما زاد حجم المرويات التي تشكل إرثها، فثمة قبائل كبيرة العدد لكني لم أعثر على ما يميزها أو يميز بعض سادتها ذلك لفقر يميز ذاكرتها الهادئة، الهدوء والتهذيب والمسالمة الذي ميز بعض القبائل جعل بعضها يتلاشى مع الوقت ويذوب في إهاب القبائل الأكثر شراسة وتعطشاً للمواجهات.

في حين أن ثمة قبائل صغيرة الحجم نسبياً لكنها دخلت مرويات المنطقة بزخم وقوة وذلك بسبب بروز زعماء وعقداء حرب يتميزون بطبائع هجومية لا ترضخ .

تصف الليدي آن بلنت محيا الشيخ :

(يمكن تمييز شيوخ القبيلة من السيف الذي يحملونه، أو من سلاح دمشقي قديم يوضع في غمد مهلهل غالباً ما يكون الشيخ قد ورثه من أسلافه القدماء. ولكن السمو الحقيقي الوحيد الذي يظهرونه هو في أخلاقهم العالية وفي التربية الحسنة والأصل النبيل، ولا تتوفر غالباً إلا في البادية).

والعلامة أحمد وصفي زكريا يقول في مطلع مؤلفه الشهير "عشائر بلاد الشام": (والإمارة والمشيخة ترجع على الأغلب لمن كان له أصل قديم في بيته، أو من كان أذكى قومه جناناً، وأبسطهم بالكرم يداً، وأشجعهم يوم النزال قلباً، وأصلبهم في الحوادث عوداً، ثم تنتقل بالوراثة، حتى ينقطع العقب، أو ينضب معين الكفاءة).

وهنالك إلى جانب شيخ القبيلة يفترض أن يكون عقيد حرب يحل محل الشيخ في زمن الحرب. في حين تبقى سلطة الشيخ في مجال القضايا المدنية، وما إن تنشب حرب، فإن عقيد حرب القبيلة يحل محل الشيخ وعادة يتم اختيار عقيد الحرب نتيجة مؤهلات قتالية وليس بالضرورة أن يكون من سلالة نبيلة. وغالباً ما كان الشيخ نفسه هو عقيد الحرب لأن أولاد الشيوخ والأمراء عادة ما يتلقون تربية حربية قاسية.. فطبيعة حياتهم القبلية تفترض سلفاً أن تظل الحرب مفتوحة وسجالاً متواصلاً بين القبائل من جهة وبين الأتراك والقبائل من جهة أخرى.

وفي نهاية حكم العثمانيين، خطر للسلطان عبد الحميد استثمار حرص الشيوخ على تنشئة أولادهم تنشئة حربية وأنشأ فيما يعرف بمدرسة العشائر .

يذكر العلامة وصفي زكريا حول هذه المدرسة التي افتتحها السلطان عبد الحميد العثماني: «فتح في الآستانة مدرسة خاصة أسماها (مدرسة العشائر) جمع فيها نخبة من أبناء شيوخهم ورؤسائهم. فعلمهم وثقفهم حتى إذا أكملوها كان يدخل بعضهم في الكلية الحربية، فيخرجون منها ضباطاً برتبة رئيس، ويمنحهم لقب "مرافق فخري" لجلالته. وبذلك كان يحبب إليهم التمدن والتنور وخدمة الدولة من جهة، وخدمة أنفسهم وعشيرتهم من جهة أخرى. وكان يدخل بعضهم في "الكلية الملكية" فيخرجون موظفين إداريين وقوام مقام، وقد تثقف في تلك المدرسة العشائرية رجال كثيرون، سمعنا بخبر بعضهم وأدركنا آخرين، فمنهم تركي النجرس ورمضان الشلاش والمرحوم عبد المحسن الهفل، وهؤلاء الثلاثة من رؤساء عشيرة العقيدات الفراتية. وعيسى الفحل من السبخة الأبي شعبان، وبرجس ابن هديب شيخ الأسبعة الأعبدة، ونواف الصالح شيخ الحديديين، وفايز الغصين شيخ سلوط اللجا الشماليين، وقد صار هذا بعد قاضياً ومحامياً. ومن جبل الدروز، علي الأطرش ومحمد عز الدين الحلبي وغيرهم، ممن ترأسوا عشائرهم عندما كبروا، ونفعوها كل النفع بدرايتهم وثقافتهم».

الليدي آن بلنت، تؤكد ما يجمع عليه كل الأجانب الذين زاروا المنطقة، أن الحروب كانت تبدأ عادة بتحريض من الأتراك الذين يرفعون شعار "فرّق تسد" والذي هو شعارهم العملي في رسم سياساتهم في البادية على حد تعبيرها. ولكن الليدي تتناسى أن حكومتها ذهبت في سياسة " فرّق تسد" أبعد مما ذهب إليه الأتراك كذلك فعل الفرنسيون..؟

مراجع متعددة اعتمدتُها لدى تجميع ما يمكن جمعه عن الشخصيات الوارد ذكرها في الكتاب. وأحياناً اعتمدت تدوين بعض المعلومات الشفاهية

غير المسجلة قبل الآن، مثال ذلك سيرة فيصل النواف شيخ مشايخ الحديديين، عندما لم أعثر على ما يكفي لتوضيح صورته في المراجع المختصة سجلت بعض الحكايا التي رويت لي عنه، والتي من الممكن أن تضيء جوانب مهمة من شخصيته .

لم يعرف عنهم التمسك بشعائر الإسلام لم تحفزهم جنة عدن.. لا يحفزهم غير إحساسهم بوجودهم عبر كرامتهم، غالبهم لم يعرفوا الصلاة أو السجود لم أقرأ عن أمير أو شيخ أدى مناسك الحج..

عمليا بدأ ذلك في النصف الثاني من القرن العشرين.. ؟

أطماع ومخططات.. وأرشيفات..

يكفي أن تقع بين أيدينا - مثلاً - صورة فوتوغرافية تعود إلى عام ١٩٢٠ التقطت للقوات البريطانية في معارك الفرات يظهر فيها جنود يعتمرون فوق رؤوسهم الزي الهندي "العمامة" وتحتها البدلة العسكرية الخاصة بالجيش البريطاني، نعرف مباشرة إنهم من الهنود السيخ الذين جندتهم حكومة الانجليز. أيضا تظهر في الصور أسلحة الرشاش البريطاني بنوعية "المكسيم" و"الفيكرس".. وهذا يتقاطع تماما مع مقولة "اللورد كيرزون" الحاكم العام البريطاني السابق لعموم الهند :(تعدّ الهند بمثابة الروح بالنسبة لبريطانية، وعلينا أن نبعد عنها أي نفوذ غير النفوذ البريطاني). مع بداية القرن العشرين كان الانكليز قد أصبحوا متمرسين في تحديد أهدافهم ورسم الطرق التي تؤدي إليها، والبادية الشامية كانت واحدة من تلك الطرق التي تنافست عليها أهم دولتين مستعمرتين في أوروبة: فرنسا وانكلترا.

نابليون فطن للبادية الشامية وجنّد الفارس المالطي الشهير لاسكاريس دوفنتيمنتيل. الذي جاء في رحلة قصد بها التعرف على رؤساء قبائل الشام للتعرف على كيفية اختراقها بشكل آمن.. تمهيداً لوصول الحملة إلى بلاد الشام.

سيلاحظ القارئ غزارة المصادر التي خطتها أيدي ضباط ورحالة ومستشرقين جاؤوا بذرائع مختلفة مثل شراء الخيول، والتنقيب الآثاري، والاستكشاف. فشهدت البادية تنافس الروس والألمان والانكليز والفرنسيون. كذلك الدنمارك التي أرسلت الكولونيل "شيزني" الذي قام بمسح وادي الفرات في عام ١٨٣٥ بتكليف من وليم الرابع. ومن الدنمارك أيضا جاء وليم نيبوهر يقود بعثة استكشافية. و"كارل شوان" الملقب بكارل الرضوان والذي قصد المنطقة من المخابرات الألمانية. و"موزيل" التشيكوسلوفاكي. هذا ولا ننسى كتابات الضباط الذين كانوا مكلفين بمراقبة البدو أمثال: المقدم موللر والرئيس رينو والملازم بوشمان، كذلك البعثات التبشيرية التي قام بها الرهبان مثال الراهبان جوسن وسافينياك الدومينيكان والراهبان بواديبارد وهنري شارل اليسوعيان، الذين زودوا مجلة الدراسات الشرقية التابعة للمعهد الأثري الفرنسي في دمشق بأهم المقالات التي ترصد حال البدو وطباعهم وعاداتهم. فرسموا الخرائط وسجلوا ملاحظات غاية في الدقة ومن الواضح أنه ملاحظات تمّ تحصيلها بعد جهد هائل ؟ خطط استعمارية بعيدة الأمد كانت وراء غالب تلك الرحلات التي كلفت بها شخصيات تتميز بالذكاء والشجاعة، لضمان قدرتهم على عقد صداقات قوية مع أسياد الصحارى. فالليدي آن بلنت الانكليزية وزوجها الكابتن ولفرد سكاون قاما برحلة جادة وطويلة محفوفة بمخاطر شتى تحت غطاء شراء الخيول. فقاما باستكشاف وادي الفرات لم تكن رحلة نظيفة من الأهداف السياسة، لكن تصنف كتاباتهما في خانة "الإنصاف" بشأن مشاهداتهما.

معظم تلك الرحلات كانت مدعومة من قبل مؤسسات متخصصة مثل: الجمعية الملكية الجغرافية، شركة الهند الشرقية، مصلحة الاستخبارات العسكرية. إضافة إلى كل ذلك لا ننسى تقارير القناصل المفصلة عن المنطقة كانت ترفع بشكل منتظم إلى حكوماتهم .

العلاّمة أحمد وصفي زكريا

من الصعب الإحاطة بكامل النصوص التي كتبت عن المنطقة. لكن الأكيد أن أحدا عربيا لم يكتب عن البدو طيلة أربعة قرون تقريباً حتى جاء العلامة أحمد وصفي زكريا الذي كتب أهم مؤلف "منصف" وبضمير خالص يثير الإعجاب والإكبار. كتب لهذا العلامة أن يمكث سبع سنوات في سلمية يعمل في مدرستها الزراعية حيث أدارها، ولما كانت السلمية مركز هام للعشائر أمثال: الأسبعة والموالي والحديديين والعقيدات وبني خالد والخراشيم والجملان وبني عز والمشارفة وغيرهم. فكان يكثر ترددهم عليها وتجوالهم في قراها وتقيظهم في مروجها واقتتالهم من حين إلى آخر في براريها الشرقية. وكان شاهداً على سلسلة معارك الموالي والحديديين التي نشبت ابتداءً من عام ١٩١٨ م واستفحلت شرورهما وعقدت مؤتمرات عدة لأجلهم في سلمية وعقيربات شرقي سلمية وكان وقتئذ أحمد وصفي زكريا من موقعه في إدارة المدرسة الزراعية يرى ويسمع (يدفعني ابتلائي بالبحث والاستطلاع إلى السؤال عن البواعث والباعثين لما يجري).

ثم كُتب له بعد مرحلة "سَلَمية" أن يتجول تسع سنوات في "أملاك دولة الشام" وقراها العديدة لما كان مفتشها وهذه الأملاك الشاسعة هي على سيف

البادية، حيث الكثير من البدو أو أنصاف البدو. فتيسر له خلالها أن يزور بعض هؤلاء فينظر ويستقصي عوائدهم وتقاليدهم وأسماء عشائرهم وفرقهم وأحاديث معائشهم ومعاركهم وما إلى ذلك. فإذا فاته شيء يستعلم عنه من ذوي المعرفة بالبدو والبادية بالمحادثة أو المراسلة، حتى إذا اجتمع له قدر كبير من هذا البحث الصعب. وكان يزيد عليه ما يعلمه بما يجده بعد التنقيب والجهد في المؤلفات العربية والإفرنجية، الباحثة عن الغابرين من البدو والحاضرين، وفي بعض التقارير الرسمية الخصوصية وبعد ذلك بدأ بنشر بعض فصول مؤلفه الذي أتمه في مجلة المجمع العلمي ١٩٤٢ م وبعد ذلك قام بنشره كاملا باهتمام خاص من قبل "إدارة العشائر" التي كان يديرها نوري إيبش بكفاءة مدحها وصفي زكريا .

وقد قَصَر كتابه في قسمه الأول على ذكر مقدمات "هامة" عن البادية الشامية وجغرافيتها وجوها ومائها وسهولها وجبالها ونباتها وحيوانها وآثارها وعمرانها الغابر والحاضر. ثم عن تاريخ البدو القديم والحديث وهجراتهم وأفاعيلهم في بلاد الشام، ثم عن أوصاف البدو وأحوالهم الاجتماعية وأخلاقهم ومزاياهم في الماضي والحاضر وما قاله مادحوهم وقادحوهم ثم عن التشريع البدوي، وكيفية التقاضي والمرافعة وأصول الصلح بين الأفراد والعشائر. ثم في القسم الثاني من الكتاب عني بتعداد العشائر وتعريف أنسابها وأحسابها ومنازلها وفرقها وأخبارها الماضية وأحوالها الحاضرة، كل ذلك حسب المناطق الجغرافية التي لكل منها من جنوبي حوران إلى أقصى شمالي الجزيرة الفراتية. وجره سياق البحث إلى ذكر التركمان والكرد والشركس أيضاً، المتوطنين في بعض المحافظات والأقضية لما لهم من الصفة والمعيشة العشائرية.

أوبنهايـم

يؤكد ماكس فرايهير فون أوبنهايم في مقدمة مؤلفه الضخم : "البدو" إن هذا الكتاب حصيلة أربعين عاماً من العمل والملاحظات والتسجيلات الشخصية التي قمت بها في عين المكان "الكتاب بأجزائه الأربعة هو حصيلة جهد طويل وهائل أنجزه المستشرق الآثاري، والسياسي، والقانوني، والدبلوماسي ماكس فون أوبنهايم وساعده وشاركه عالمان ألمانيان قديران هما البروفيسر ايريش برونيلش والبروفسير فرنر كاسكل. يعد مؤلف أوبنهايم من أجلّ الدراسات وأكثرها عمقا في فهم القبائل البدوية ودراستها دراسة تاريخية اجتماعية واقتصادية شاملة وسياسية وأنثروبولوجية وهو يقدم معلومات شاملة وفريدة من نوعها عن تاريخ القبائل وأصولها وأنسابها وهجراتها والترابط القائم بينها.

وثمة ناحية مهمة أخرى في تاريخية هذا الكتاب والبحوث التي تضمنها هي الفترة الزمنية "الحساسة" التي أنجز فيها المؤلف بحثه مستندا إلى مشاهدات ميدانية، حيث فترة فاصلة وجوهرية في تاريخ البدو بشكل خاص والمنطقة العربية بشكل عام وهي الفترة الزمنية التي بدأت قبل عملية توطين القبائل البدوية، وقبل أن ينتشر نفوذ وسلطة الدولة التي قامت بعد الحرب العالمية الأولى .

قوام مؤلف أوبنهايم المادة الحية المسجلة من واقع مادي ملموس ويبرز لدينا قاسم مشترك بينه وبين أحمد وصفي زكريا، من حيث اعتماد البحث الميداني مقترنا بأسلوب التشكيك حتى يثبت دقة المعلومة الملتقطة. في هذا

الشأن يقول أوبنهايم ج١ ص ٦٦ : (إن البدو هم، أناس قليلو التعبير عن أنفسهم، وهم يخافون من المعطيات الرقمية "العددية " لاعتقادهم أن أخبارهم يمكن أن تصير خطراً عليهم بسبب الضرائب وغيرها من الالتزامات التي تفرضها الحكومات. لذا كنت أحتاج دوماً إلى تحضيرات طويلة وإلى كسب ثقتهم بصورة مطلقة، قبل أن أتمكن من تلقي أخبار موثقة فعلا منهم. وقد ساعدني على فتح قلوبهم لي معرفتي الدقيقة بأعرافهم، ومشاركتي القلبية في حياتهم الفريدة وعلامات البهجة التي كانت تبدو على وجهي عندما كنت أستمع إلى قصص ومغامرات الغزو والصيد في تلك اللحظات. وكانت تنشأ لعبة سؤال وجواب معقدة ومتواصلة تتيح لي معرفة ما له من قيمة علمية من أحاديث. فهم لم يألفوا الحوارات العلمية أبداً. إن الصبر الجميل والمعرفة الدقيقة باللغة العربية هما شرطان ضروريان لدراسة البدو).

سبق انجاز الكتاب بأجزائه الأربعة اهتمام وتعب أوبنهايم في جمع المصادر التي يمكن أن تكون على علاقة بالبدو، بالدرجة الأولى منها الأعمال التاريخية والجغرافية وكتابات الرحّالة والإحصائيات بأنواعها وتقارير الحجاج المسيحيين والمسلمين، المكتوبة بجميع لغات الشرق والغرب. كما تمّ! شراء مخطوطات شرقية مهمة قديمة وحديثة التواريخ. وتشكل دواوين الشعر أحد المصادر المهمة في بحثه السوسيولوجي.

كانت أول محاولة في ألمانيا لتدريس اللغة العربية من قبل كريستمان المتوفى سنة ١٦١٣ م ويجمع المختصون على أن ميزة الاستشراق الألماني تكمن في كونه الأقل خضوعا لغايات سياسية ولم تبرز الصفة العدائية في

كتاباتهم ودراساتهم، فالرائد الأول الذي يعتبر أول من وضع أساس الدراسات العربية في الجامعات الأوروبية هو الألماني "رايسكه " المتوفى سنة ١٧٧٤ م والذي سمى نفسه " شهيد الأدب العربي" بعد أن وقف حياته كلها على دراسة اللغة العربية والحضارة الإسلامية .

لا بد من الإشارة إلى أن أوبنهايم أول من استكشف تل حلف وقد سُمح لأوبنهايم بإرسال ثلثي مكتشفات تل حلف إلى برلين والبقية أرسلت إلى حلب حيث لم تزل تعرض في متحفها. وفي عام ١٩٣٠ افتتح متحف تل حلف في برلين مدعوماً من قبل عائلته وأصدقائه. وكانت آخر رحلة قام بها إلى سورية في عام ١٩٣٩ م وقد رُحّل قسراً، وذلك بتدخل من السلطات الفرنسية. وفي عام ١٩٤٣ تعرض بيته ومكتبه الخاص ومقتنياته من آثار تل حلف في المتحف للضرب بواسطة القنابل مما تسبب بأضرار كبيرة بالآثار وفقدان الكثير منها.

جهود فردية..

قليلة الجهود التي بذلت في شأن تتبع مآل العائلات "الحاكمة" القبلية وسنجد فجوة في معرفة أخبارهم بعد الفترة التي انتهى أحمد وصفي زكريا فيها من جمع معلومات كتابه. فقط ثمة محاولات شخصية قام بها بعض أبناء العشائر المثقفين خلال العشر سنوات الأخيرة لتوثيق حال الأعلام والشيوخ الحاليين للقبائل التي تغيرت أماكنها وأعدادها مع نهاية القرن العشرين. لعل أبرز مثال على ذلك مؤلفات الأستاذ "**تركي فرحان المصطفى**"، الذي بذل

جهداً مشكوراً في تتبع أخبار شيوخ القبائل في النصف الثاني من القرن العشرين وبداية الألفية الثالثة ولأجل دقة معلوماته سافر إلى استانبول، كذلك تكبد عناء التنقيب بين غبار وثائق مديرية العشائر التي انتهى دورها بعد قرار حكومة الوحدة بإلغاء الدائرة بغية إنهاء النظام العشائري. الوثائق موجودة حالياً في منزل خالد العظم الذي يتبع لمديرية الآثار حيث تقبع الوثائق طي الإهمال والنسيان .

كذلك لا بد من ذكر الجهود المخلصة للأستاذ "**أسعد الفارس**" في ترجمة مؤلفات هامة عن البدو وتأليف كتب عدة عن تاريخ منطقة الفرات وتجميع ما أمكنه من شهادات المعمرين الذين شهدوا معارك الفرات ضد الأتراك والفرنسيين والإنكليز. لعل أبرزها كتابه "الكولونيل ليشمان والدرب الطويل إلى بغداد".

حيث قدّم تفاصيل حياة من كان يُسمى "**تجيمان الفرات**" ١٨٨٠ – ١٩٢٠ م "**الكولونيل جيرارد ايفلين ليشمان**" الضابط والرحالة الانكليزي الذي أوكلت له مهمات خاصة في الجيش البريطاني حين ابتدأ حياته العسكرية في جنوب أفريقيا وبرزت قدراته الفائقة في العمل التجسسي والاستخباراتي في كيب تاون، وشارك في حرب "البوير"، وفي الهند كان ضمن الفوج المرابط على سفوح الهيمالايا، وتجول في آسيا على تخوم الإمبراطورية العثمانية جامعاً أكبر قدر ممكن لصالح تفكيكها، فتنقل بين بوشهر وبندر عباس وكراتشي ومسقط، وتعلم اللغة العربية واستعد لتنفيذ خطط حربية كلفه بها بلده لإخضاع وادي الفرات للاستعمار وهذا وضعه في مواجهة مباشرة مع شيوخ العشائر الذين أذلوه في عدة معارك شهيرة حيث يعترف بذلك في رسائله للضباط الأعلى منه. وأخيرا قتله الشيخ ضاري الشمري زعيم وعقيد حرب قبيلة زوبع التابعة لشمّر.

ملاحظـات

فضلاً عن البدو الرحل، يوجد عدد من القبائل على حدود السهوب الصحراوية، كانت في الماضي قبائل رحلاً، لكن قبائل أقوى منها أزاحتها شيئاً فشيئاً عن مراعيها، فأقلعت عن التجوال في الصحراء الشاسعة، وانتقلت إلى تربية الأغنام وبدأت بممارسة أعمال زراعية على حافة الأراضي الزراعية، فيعيش جزء من القبيلة في طراز خاص من البيوت الطينية التي تبنى على شكل دائري أو هندسي يأخذ شكل المربع المتطاول أو خيام، بينما يرتحل باقي أفرادها مع الماشية خلال فصلي الربيع والصيف تتبعاً للعشب وما تنبته البوادي المتاخمة لمناطقها الزراعية، دون أن تتوغل، مع ذلك، عميقا في الصحراء، شأن البدو الأقحاح أي "الجمّالة". هذه الظروف تنطبق على سورية وبلاد الرافدين العليا والسفلى، وخاصة في مناطق ضفاف نهري الفرات ودجلة الكبيرين. وتتطور بطريقة مشابهة حياة القبائل نصف الرحل في مناطق زراعة النخيل داخل الجزيرة العربية.

وقد حافظ هؤلاء البدو، بدورهم، على تقاليدهم القبلية، وعلى منعة معينة. وإن كانوا يعيشون أغلب الأحيان في ضرب من علاقات تبعية حيال القبائل الرحل الكبيرة، التي فرضت عليهم دفع خوة، تشبه الضرائب التي عليهم تأديتها للحكومة. في زمن الحرب العالمية، كان هذا الوضع لا يزال قائماً بالنسبة إلى معظم قبائل أطراف السهوب السورية وسهوب بلاد الرافدين.

أما أنصاف الرحل وبسبب تعاظم ضغوط القبائل الكبرى عليهم، فكانوا غالبا مجبرين على الانسحاب من حافة الصحراء، والعيش كفلاحين في المناطق الزراعية، أو تدبر معاشهم كرعاة. هذا المصير أصاب قبائل مختلفة كانت ذات يوم جبارة وعريقة. لكنها حافظت هي أيضا على تنظيمها القبلي .

لا بد من التمييز بين البدو الرحل (الأصلاء أو الأقحاح) ويسمون أهل الوبر، الذين يرعون الإبل فقط ويسمون أهل الإبل وهؤلاء يتمسكون بحياة الترحال على مدار العام.

بينما البدو الغنامة النصف رحل أو عرب الديرة وهؤلاء يعتمدون على رعي الأغنام إلى جانب زراعة الحبوب بينما يتجنبون زراعة الخضراوات وما شابهها لأنهم يرون في ذلك تحقيراً من شأنهم.

قانون إلغاء نظام العشائر

(قانون إلغاء نظام العشائر:

«وثيقة رقم: ١١١٥

قرار رئيس الجمهورية العربية المتحدة بالقانون رقم ١٦٦ لسنة ١٩٥٨ في شأن إلغاء قانون العشائر في الإقليم السوري..

باسم الأمة/ رئيس الجمهورية

بعد الاطلاع على الدستور المؤقت:

قرر القانون الآتي:

مادة ١- يلغى قانون العشائر الصادر بقرار رئيس مجلس النواب السوري رقم ٣١ وتاريخ ١٩٥٦/٦/١٣ ويخضع أفراد العشائر إلى كافة القوانين والقرارات والأنظمة المطبقة على المواطنين الحضريين في الإقليم السوري.

مادة ٢- ينشر هذا القانون في الجريدة الرسمية ويعمل به بدءاً من تاريخ نشره.

صدر برياسة الجمهورية في ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٥٨»

جمال عبد الناصر)

بعد أن صدر هذا القرار، مباشرة ألغيت مدارس العشائر الكائنة في تدمر ومعرة النعمان والضمير ودير الزور، والتي لعبت دوراً تنويرياً أساسياً في تعليم عدد كبير من أبناء البدو الرحل آنذاك ومعظم الذين تخرجوا من تلك المدارس أثبتوا حضورا رائدا في مجتمعاتهم. كذلك ألغيت مديرية العشائر التي كان مقرها في أبو رمانة. كان للمديرية أهميتها في تدبير أمور العشائر وفي فض النزاعات القبلية وغيرها من المشاكل العشائرية.

هذا الكتاب

ولا بد من التأكيد على أن هذا الكتاب لا يدعي أن الأسماء التي تم تناولها فيه، وحدها الكافية الوافية، لتسليط الضوء على التاريخ القبلي للبادية السورية. إنه فقط محاولة لتقديم أبرز الشخصيات التي أثرت بخارطة التوزع - الانزياح - القبلي في المنطقة تبعا لمجريات أحداث بعينها...

قبيلة الموالي

إنها الحكاية الغرائبية لسيرة حكام هذه الدولة التي ازدهرت بشكل متقطع، تمّ ذكرها بشكل متقطع أيضا، ويمكن الوقوف على ملامحها من خلال سيَر أمرائها وزعمائها.

المؤرخ أحمد وصفي زكريا، عندما قابل الأمير الشايش في النصف الأول من القرن العشرين استغرب أن عجائز القبيلة يتمسكون ببعض الروايات التي لم يُعثر لها على سند تاريخي. في الواقع، هم لا يعرفون من تاريخهم سوى روايات يذكرها بعض المعمرين منهم، دون أن يستطيع أحد منهم أن يؤيدها بدليل خطي. وغالباً ما تبدأ الحكاية من تلك الريشة الذهبية التي منحها المأمون لجدهم الأول "شقير" الفتى الأشقر اللون الذي أنجبته فتاة بدوية من بني كلاب، اتصل بها هارون الرشيد خلال رحلة صيد، أعجبته وتزوجها خلال رحلته، وعندما عاد تركها في بيت أبيها ومعها قلادة من الجواهر خاصة بهارون الرشيد. "شقير" كان فارساً ومغواراً أعقب ولداً مثله بالفروسية والرجولة اسمه "حمد العباس" ذهب مع أتباعه من بني كلاب لنجدة عمه المأمون في حربه مع الأمين. وكان العقد الجوهر الذي أهداه هارون الرشيد إلى جدته علامته التي عرّف فيها عن نفسه. فحدث أن المأمون أكرمه وأثابه بريشة من ذهب فدعي مذ ذلك الوقت بأبي ريشة وولاه على إمارة البادية على ديار الشنبل "براري حمص وحماة وحلب".. الحكاية تظل في حيز الأسطورة والخرافة. مثلما تظل حكاية أخرى تربطهم بالعباسيين لكن في

الرواية الأخرى يزعمون أنهم من ذرية الولد الذي جاء من العباسة أخت الرشيد.. أيضاً رواية ليست مسندة تاريخياً ؟

ورواية أخرى تقول أن أمير هذه القبيلة - وهنا يرجع التاريخ إلى ما قبل الفتوحات الإسلامية - قد وقعت في غرامه الملكة تيودورا ملكة القسطنطينية، زوجة جوستنيان، والتي ذكرتها المصادر التاريخية أنها عربية من منبج وقع جوستنيان في غرامها رغم ماضيها "المشبوه" اجتماعياً. ويبدو أن ثمة مأثرة غرامية أخرى "مررّها" التاريخ على شكل قصاصات من هنا وهناك، تتعلق بغرامها لأمير قبيلة عربية كانت تجوب تخوم حلب ومنبج - إلى اليوم تقطن تلك المناطق قبائل من الموالي - وفي ما يذكر أيضاً أن تيودورا اشترت له كتيبة من المماليك ليشكلوا نواة جيش للأمير المعشوق وأن أولئك المماليك كانوا من أعراق مختلفة ولاحقاً شكلت عائلاتهم "القبائل" التي التفت حول عائلة الأمراء، وربما يفسر هذا اختلاف "نخوة" أي صيحة الحرب، الأمراء عن نخوة بقية "الموالي" فالأمراء نخوتهم "راعي البلها ولد الأمير" أما بقية الموالي نخوتهم واحدة "دواخلة" أيضاً تلك الحكاية تفسر اسم "الموالي" المرتبط بمفهوم "الموالاة" ويشير بالفعل إلى حالة التكوين الأولى لهذه القبيلة التي عرفت كأقدم قبيلة بدوية في بلاد الشام ولم تزل منازلها قريبة من ديار حلب ومنبج .

لكن ما هو أكيد بتاريخ قبيلة الموالي أنهم أقدم وأشهر قبائل بلاد الشام التي سجلت حضوراً مبكراً جداً مقارنة بقبائل أخرى مثل عنزة وشمر وغيرها من القبائل.

أول من ذكرهم من الفرنج السائح الأيطالي "دللا واللا" الذي جاء إلى البلاد العربية في حدود سنة ١٠٧١هـ، فمما قاله: (أن أمير بلدة عانة على الفرات وكل البادية يدعى فياضاً وهو من آل أبي ريشة، أمراء عشيرة

الموالي، السائدة في الضفة اليمنى من الفرات). ثم ذكرهم السائح الدنيماركي نيبوهر الذي زار بلاد الشام في حدود سنة ١١٨٠ هـ، ومما قاله: (أن أكبر عشيرة في أنحاء حلب هي "الموالي". والأسرة التي تحكمها تدعى "الأبو ريشة".

وباشوات حلب ما كانوا ليكبحوا جماح هذه العشيرة إلا بمنح هذا أو ذاك من أمرائها إقطاعات قرى أحيانا، أو واردات وإكراميات معينة أخرى. والذي ينحى عن الإمارة من هذه الأسرة، ينسحب مع حزبه إلى أنحاء الفرات، ويلبث منتظراً عزل الباشا الذي نكبه، حتى إذا جاء باشا جديد تقدم إليه بالهدايا والرشوات، أو بوسائل أخرى تمكنه من التغلب على من زاحمه في الإمارة، وقبل بضع سنوات شعر أحد هؤلاء الأمراء أن الباشا ينوي عزله، فقام ونهب قافلة فيها ٣٠٠٠٠ ألف رأس من الماشية، وابتعد بهذه الغنيمة نحو الفرات لمكان آمن. وحدثوني لما كنت في حلب أن هذا الأمير المعزول هاجم ونهب حمص. وقالوا أيضا أن الأمير الذي خلفه لم يكن قادرا على مقاومة خصمه المذكور، ولا على إدارة العشيرة كالواجب، وأن هذه الأسباب ستلجئ الباشا لإعادة الأمير المعزول لمنصبه، مما يدل على أن نفوذ الترك على هؤلاء الأعراب قليل).

ثم ذكرهم السائح الفرنسي فولناي الذي مر بحماة في حدود سنة ١٩٩٩ه فمدح سهول حماة ثم قال: (إن المانع لاستثمار هذه السهول هو طغيان محمد الخرفان أمير الموالي وعيثه، وكثرة أخذ الأتاوات "الخوة" من القرى والمزارع).

فقد بسط أمراء الموالي نفوذهم من حمص وسلمية – وسلمية كانت عاصمتهم – إلى حلب فوادي الفرات وأطراف العراق. بحيث أن أحدهم واسمه فيما رووه "فياضاً" كان قد نصب عامودا وسط فيافي الحماد دعاه

"عمود الحمى" حرم به على العشائر النجدية المتحفزة للقدوم نحو بادية الشام أن تتخطاه، وتقترب من مناطق نفوذ الموالي في تلك البادية. في هذا الشأن يسوق وصفي زكريا دلائله من كتاب للمستشرق الفرنسي "رينو" في ما ذكره في كتابه "بدو مقاطعة دمشق" فقال: (إن الموالي هم أقدم من نزل واستقر من البدو في بلاد الشام).

ظل أمراء الموالي أسياد البادية الشامية يمنعون اختراق عمود الحمى على العشائر القادمة حديثاً من الجنوب أو الشرق إلى أن كان أول المتجاسرين على اختراقه "بنو خالد" القادمون من الإحساء للمرة الثانية في أواسط القرن الحادي عشر، فصدتهم الموالي بادئ ذي بدء، لكن بني خالد بعد معارك عديدة استظهروا على الموالي في معركة "جب الصفا" ونفذوا على ديرة الشنبل، واستقروا حتى يومنا هذا.

وبعد ذلك في أوائل القرن العشرين زحفت قبيلة كبيرة من نجد هي "شمّر" وتقدمت صوب الشمبل تحاول النفوذ فتصدت الموالي لها وحدثت معارك انتهت برد شمر وإرجاعها إلى نجد. لكن شمراً لم تجد مجالاً للاستقرار في نجد بعد مشاكل قبيلة في نجد، فرجعت إلى بادية الشام بعد حين يصعب تحديد عدد سنيه إلا أن شمر في تلك المرة تحاشت مناطق الموالي، فنزلت في أنحاء جبل البشري وجبل العمور إلى الفرات كما عملت وقتئذ أو قبلها بقليل "العقيدات" التي قدمت من نجد واستقرت في الفرات .

الموالي حرفت مسار القبائل النجدية المهاجرة صوب الفرات وحافظت على تخوم الشمبل ضمن نفوذها.

العلامة أحمد وصفي زكريا بذل جهداً كبيراً وحقيقياً في شأن تقصي جذور أمراء الموالي الحاليين الذين يعرفون بآل "**أبي ريشة**" .

فهو يذكر كيف أنه خلال عمله في **مدينة سلمية** وإقامته فيها لمدة من الزمن، انتبه ذات مرة في إحدى الجبانات إلى شاهدة قبر كتب عليها "محمد ابن عيسى بن مهنا" وتاريخ وفاته "رجب عام ٧٢٤ هجري".

فيقول في معرض بحثه الخاص بأصول قبيلة الموالي[١] (وما إن لمحت هذا الاسم حتى تذكرت أنه مر علي كثيراً خلال قراءاتي تاريخ أبي الفداء وتاريخ حيدر الشهابي فأسرعت بعد هذه الزيارة لمراجعتهما، فإذا بي أمام طائفة من الحوادث أجراها أبو هذا الرجل وإخوانه مهنا وفضل وأعقابهما في القرن السابع والثامن والتاسع من الهجرة. وأخرى مثلها، أجراها قبلهم أقاربهم بنو الجراح في جنوبي بلاد الشام وشماليه في القرنين الرابع والخامس أدهى وأمرّ، مما أتاه الموالي والحديديون في عهدنا. وقد تبين لي منها ومن المصادر التي راجعتها بعد حين، كصبح الأعشى للقلقشندي "ج ٤" والعبر لابن خلدون "ج٦" أن آل عيسى بن مهنا فخذ من آل فضل من ربيعة من طيء من كهلان القحطانية. كانوا في زمن السلاطين الأيوبيين سيما في دولة المماليك، كما قال صبح الأعشى "رؤساء وسادات العرب ووجوهها، ولهم عند السلاطين حرمة كثيرة، يحلونهم فوق كيوان، وينوعون لهم أجناس الأحسان".

وهذا الاطلاع ساق وصفي زكريا إلى اقتفاء أثرهم "آل عيسى" وراح ينقب في صحائف التاريخ فيعثر في كتاب الجغرافيا الذي يصفه زكريا بالممتع- والمسمى "جهان نما" للكاتب التركي كاتب جلبي المتوفى سنة ١٠٦٨ هجري صاحب كشف الظنون والمطبوع بعد وفاته - على ما يذكر زكريا - في الاستانة سنة ١١٤٢ هجري وبين أبحاثه يعثر زكريا على ما يثبت ظنونه في بحث جلبي عن سلمية: [٢] (وما برح هذا اللواء – يعني سلمية وقد كانت

---

(١) أحمد وصفي زكريا: عشائر بلاد الشام - ص ٨٨ .

(٢) المصدر السابق – ص ٨٩.

في أيامه مركز لواء – في حوزة أمراء الموالي، وهؤلاء ينسبون إلى "آل حيار" من قبائل العرب. وهم ينقسمون إلى فريقين آل حمد وآل محمد وتصل مناطق نفوذهم إلى ضواحي حلب والرقة، وفي رواية أن حمد أبا نعير أبلى مرة بلاء حسنا في معركة على عهد أحد سلاطين مصر، وكان يضع ريشةً، فدعي بأبي ريشة، وأنعم عليه ذلك السلطان، بمبلغ عظيم من الذهب، فاشترى به ألف عبد ليقوى بهم على قومه، فسميت أعقاب هؤلاء العبيد بالموالي وهؤلاء لا يكون منهم أمراء).

بحوث وصفي زكريا تقوده بدون لبس ووضوح كامل إلى ما ذكره القلقشندي بشأنهم: (ملوك البادية وأعظم سادتها في عهد السلاطين الأيوبيين والسلاطين المماليك). وكمن يعثر على كنز، يسوق زكريا أدلته بتسلسل لا غبار عليه مثبتاً أن أمراء الموالي الحاضرين المروفين بآل أبي ريشة متحدرين من مهنا الثاني بن عيسى بن مهنا الأول الفضلي الربيعي الطائي، مبتدئاً بأصول آل عيسى، ونازلاً نحو فروعهم، مع بيان بعض أحداثهم في دول اليوبيين والسلاطين المماليك والعثمانيين، مستنداً إلى المصادر التي أتيح لي الوصول إليها، خدمة لهذه الناحية الغامضة من تاريخ بلاد الشام.

فنعرف أن من أمرائهم مهنا بن مانع بن حديثة بن عقبة بن فضل بن ربيعة، ومهنا هذا حضر مع الملك قطز قتال جيش التتر سنة ٦٥٨ هجري في عين جالوت فأجازه قطز بسلمية، نزعها من الملك المنصور بن الملك المظفر صاحب حماة وأقطعها له "أبو الفداء ج٣ ص٢١٤" ثم ولى الملك الظاهر بيبرس ابنه عيسى. ووفر له الإقطاعات على حفظ السابلة، وعيسى هذا على ما ذكره ابن إياس في تاريخه "ج١ ص ١٠٢" هو الذي جاء بالإمام أحمد العباسي، بعد حادثة هولاكو في بغداد، التي جرت سنة ٦٥٦ هجري، وقضي بها على الخلافة العباسية، وكان أحمد فاراً من القتال، مختبئاً عند أناس من

قبيلة الأمير عيسى، فأوصله إلى مصر إلى الملك الظاهر بيبرس، وشهد هو وقومه أنه عند من نسل العباسيين فبويع له بالخلافة، واستمرت هذه الخلافة الصورية فيه وفي أعقابه إلى أن استخلصها منهم السلطان سليم العثماني سنة ٩٢٣ هجري وقضى عليهم .

ذُكر عيسى في سياق أحداث تاريخية مهمة تدلّ على ما كان له من نشاط شديد وما شغله من حيّز عظيم. كان يُلقّب بلقب "شرف الدولة" - على ما رواه ابن تغري بردي في "المنهل الصافي" - على ما ذكره العلامة وأحمد وصفي زكريا، الذي روى عنه قوله أنه كانت له منزلة عظيمة عند الظاهر بيبرس، ثم تضاعفت عند الملك المنصور قلاوون، الذي ضاعف حرمته وإقطاعه، وملّكه مدينة تدمر بعقد بيع وشراء، وأورد عنه ثمنها لبيت المال، وأنه كان كريم الأخلاق، حَسَن الجوار، مكفوف الشر، لم يكن في العرب من يضاهيه مع الديانة وصدق اللهجة والعزوف عن مسالك العرب في النهب، وعمل ما ينفع المسلمين. وقد كان يكف العدو "الصليبيين" عن حلب وأعمالها. واشترك مع الملك المنصور في وقفته مع التتر بحمص سنة ٦٨٠ هجري وكادت الدائرة تدور على المسلمين لولا ثبات الملك بنفسه ومجيء الأمير عيسى بعربه من سلمية واعتراضه جيش التتر من خلفه. حتى تمت هزيمته- أحمد وصفي زكريا يعلق هنا في مؤلفه عشائر الشام على ما تقدم ذكره : "وأكبر ظني أن عيسى هذا هو الذي قال عنه كاتب جلبي في كتابه "جهان نما" انه كان في هذه المعركة حاملا ريشته على رأسه فلقب بأبي ريشة. وبقي هذا اللقب إلى يومنا هذا. وأنه هو الذي نال من الملك المنصور عطاء عظيما، فاشترى به عبيداً ومماليك وأما الأمارة وإقطاعية السلمية. فحصر توريثها في المتحدرين من صلبه، ولذلك سما أبناؤه بقوة فوق الظروف البدوية، حتى إن خلفه الأول، ابنه مهنا، أقام مشفى في سرمين - كما جاء في تاريخ أبي الفداء

وبنى ابنه مسجداً صغيراً في معبد الشمس بتدمر. مات عيسى سنة ٦٨٣ هجري ودفن في جبانة الشيخ فرج شمالي سلمية ويذكر ابن خلدون، أن تاريخ وفاته ٦٨٤ هجري وأقيمت له في دمشق الصلاة التي كانت تقام لأصحاب المناصب الرفيعة، أيضاً على ما جاء في كتاب "شذرات الذهب في أخبار من ذهب ج٦ ص ٢٢" .

ومما يظهر تأثير سلالة البوريشة بعض ما يذكره "لوكرنيك"[١]: (أنّ اسم "البوريشة" صار مخيفاً للباشوات في ديار بكر وبلاد العرب وحلب وبغداد منذ عهد السلطان "مراد الثالث" ١٠٠١ م وقد تعهد لهم السلطان بدفع "٦٠٠٠" دوقة وأن يعترف بحكم وراثي).

(١) النظام الاجتماعي عند البدو، غينادي ماركوف، دار التقدم - موسكو - ١٩٨٦م، ص٦٩.

حسام الدين مهنا أمير العرب بالشام

إنه الأمير مهنا البوريشة، ولاّه الملك المنصور قلاوون الأمارة فلقب بحسام الدين، وصار كبير آل عيسى النازلين في براري سلمية وحماة وتدمر بل أمير البادية الشامية كلها، وقد ردد أبو الفداء وابن الوردي وابن حجر العسقلاني وحيدر الشهابي في تواريخهم، والمقريزي في خططه، وابن بطوطة في رحلته، ما كان للأمير مهنا الثاني بن عيسى المذكور في أواخر القرن السابع وأوائل الثامن من المكانة لدى سلاطين مصر ونوابهم في بلاد الشام- وذلك يؤيد ما قاله مؤلف مسالك الأبصار أيضاً – تداخله في بعض أمور الدولة، وكيف أن الملك الأشرف خليل بن قلاوون، بعد أن نزل ضيفا على الأمير مهنا قبض عليه وعلى أخويه محمد وفضل وأرسلهم معتقلين إلى مصر إلى أن جلس الملك العادل كتبغا، فأفرج عنهم وعاد مهنا إلى سلمية، وكان مقره في قرية تل أعدا، وأنه في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون علت منزلته، وقويت وجاهته جداً، بحيث استطاع أن يشفع بالعالم الكبير "أحمد بن تيمية" وقد كان مسجوناً في مصر فأخرجه، وأن يلتمس نصب أبي الفداء ملكاً على حماة فيجاب إلى طلبه، ويحدثنا المقريزي في كتابه "المواعظ والاعتبار ج٢ ص٢٢٥" عن أسباب السعادة والوجاهة اللتين كانتا للأمير مهنا عند الملك الناصر قلاوون بما ينقله وصفي زكريا بالحرف لطرافته ودلالته أيضا على مبلغ عناية سلاطين ذلك العهد بالخيل وأربابها. وقال: (إن الملك الناصر محمد شغف باستدعاء الخيول من عرب آل مهنا وآل فضل وغيرهم

وبسببها كان يبالغ في إكرام العرب ويرغبهم في أثمان خيولهم حتى خرج عن الحد في ذلك فكثرت رغبة آل مهنا وغيرهم في طلب خيول من عداهم من العربان، وتتبعوا عتاق الخيل من مطانها، وسمحوا بدفع الأثمان الزائدة على قيمتها حتى أتتهم طوائف العرب بكرائم خيولهم فتمكنت آل مهنا من السلطان وبلغوا في أيامه الرتب العلية.. فكان لا يسمح بخيول آل مهنا إلا لأعز الأمراء وأقرب الخاصية منه، وكان جيد المعرفة بالخيل وشياتها وأنسابها). ثم قال (وبعث إليه الأمير مهنا فرسا شهباء على أنها إن سبقت خيل مصر فهي للسلطان وإن سبقها فرس ردت إليه، ولا يركبها عند السباق إلا بدوي قادها، فركب السلطان للسباق في أمرائه على عادته، ووقف معه سليمان وموسى ابن مهنا، وأرسلت الخيول من بركة الحاج على عادتها وفيها فرس مهنا وقد ركبها البدوي عرياً بغير سرج، فأقبلت سائر الخيول تتبعها حتى وصلت المدى وهي عري بغير سرج، والبدوي عليها بقميص وطاقية، فلما وقفت بين يدي السلطان صاح البدوي السعادة لك اليوم يا مهنا لا شقيت، فشق على السلطان أن خيله سبقت، وأبطل التضمير من خيله، وصارت الأمراء تضمر على عادتها، ومات الناصر محمد عن أربعة آلاف وثمانمئة فرس وترك زيادة على خمسة آلاف من الهجن الأصائل والنوق المريات والقرشيات سوى أتباعها وبطل بعده السباق).

وقد أخطأ مهنا بعد وأضاع السعادة والوجاهة اللتين كان يتمتع بهما هو وقومه، وذلك لما قام وأعان نائب حلب قراسنقر الثائر على الملك الناصر وفر من جيش هذا الملك إلى أنحاء العراق، وبقي هو وعشيرته آل عيسى شريدا وبعيدا عن سلمية إلى أن عفي عنه ورجع ومات فيها .

قال المؤرخ إسماعيل بن كثير الدمشقي في كتابه البداية والنهاية في حوادث سنة ٧٣٥ هجري (وفيها مات حسام الدين مهنا أمير العرب بالشام).

عساف البوريشة

تحت عنوان "فساد العرب والإيقاع بهم" نقل كامل الغزي - تاريخ حلب ج٣ ص٢٨٢ - هذا الخبر عن تاريخ "نعيم التركي" قال: (وفيها - سنة ١٠٥٤ هجري- كثر فساد العرب في نواحي حلب وانقطعت السابلة. وكان أمير هؤلاء العرب المتمردة الأمير عساف وكان له من قبل الدولة راتب معلوم. ولما زاد طغيانهم أراد إبراهيم باشا والي حلب أن يعمل الحيلة في القبض على عساف المذكور، وكان يريد أن يعزله عن إمرة العرب، إلا أنه رأى ذلك لا يجديه نفعاً، فإن عسافاً لا يعترف بالعزل في ذلك الحين. ثم إن إبراهيم باشا خطر له أن يرسل إلى عساف رسولاً يدعوه إلى ضيافة يصنعها له في حلب، فقال له الرسول: إن عرب البادية لا تأوي إلى المدن، بل ولا ما قاربها. فأمر إبراهيم باشا أن تصنع وليمة حافلة قرب حلب على بعد خمس ساعات منها تقريباً. ثم سار الباشا إلى محل الضيافة بالمهمات والعساكر ومعه الهدايا، وأشاع أن هذه الوليمة مصنوعة إلى سلطان البر، يعني به عسافاً، وكان الرسول قد سبق إلى الأمير عساف ودعاه إلى هذه الضيافة فأجابه إليها بعد أن استوثق منه عدم الغدر، وعاد الرسول إلى إبراهيم باشا وأخبره وحذره من الغدر بالأمير عساف في خصوص هذه الضيافة، وكان الأمير عساف قد تجهز للقدوم ومعه جم غفير من العربان خوفاً من أن يغدر به الباشا. ولما وصل إلى محل الضيافة غدر به الباشا، وحاول أن يقتله، فاستدرك الفرط وانفلت من قبضته، وعاد إلى أشد ما كان عليه من الإفساد وقطع الطرق. ولما سمعت الدولة بغدر إبراهيم باشا وعدم وفائه وسوء

تدبيره، عزلته حلب، وولت مكانه درويش باشا المعزول عن ولاية بغداد، فقدم حلب وتلافى خطر العربان الذي كان من أهم الأمور في ذلك الزمان، وأرسل من قبله رسولاً يدعو عساقاً بالرفق واللين إلى طاعة السلطان، وجهز معه هدايا ثمينة لعساف، فوصل الرسول المذكور إلى عساف، وبسط له الكلام، وتلطف به، ووبخه على عصيانه، وعظم من أمره وأمر هذه العشيرة المعروفة بأبي ريش – الصواب أبي ريشة – وقال له لا ينبغي بأدنى فرد من هذه العشيرة أن يشهر على السلطان عصيانه، فأجابه عساف بقوله: والله مالي ذنب في هذا العمل وإنما الذنب فيه لإبراهيم باشا، ثم إن عساقاً استدعى بثلاثة دروع كان لبسها في يوم الضيافة وصار يرى الرسول الثقوب التي حصلت من إطلاق الرصاص، وكانت إحدى الرصاصات قد ثقبت الدرع ووصلت بدنه فحلف الأمير عساف إن جرح هذه الرصاصة بقي يبصق منه الدم شهرين فسلاه الرسول، وذكر له أن الدولة لم تعزل إبراهيم باشا إلا لما أجراه معك من الغدر، فرضي حينئذ عساف، وتعهد للرسول بالأمن والأمان وأهداه مقدار عشرة خيول، وجهز معه للدولة عدة خيول، وأعطاه حوالة على حلب بألفي ذهب للدولة).

حيّار بن مهنا البوريشة

لعل أهم من ذكره هو ابن بطوطة في رحلاته الشهيرة حيث يذكر أنه لقي هذا الأمير في حصن "فيد" فيقول: (وهنالك لقينا أميري العرب، وهما فياض وحيار، وهما ابنا الأمير مهنا بن عيسى، ومعهما من خيل العرب ورجالهم من لا يحصون كثرة، فظهر منهما المحافظة على الحاج والرحال والحوطة لهم)[١].

ويذكر أن حيار بن مهنا البوريشة، أمير الموالي، تولى الإمارة بعد وفاة أبيه سنة ٧٣٥ هـ وقد ولد في عانة على الفرات سنة ٧١٠ هـ[٢] .

وحدث أن تلك الفترة شهدت اقتتال شديد بين الموالي سببه التنافس على السلطة في العشيرة فاقتتل سيف الدين بن فضل أمير العرب مع أحمد فياض من الأمراء قرب سلمية، فانكسر سيف وجرى على المعرة وحماة وغيرها من العرب أصحاب سيف وأحمد فياض من الذهب وقطع الطريق ما لا يوصف، وكانوا يغيرون على حماة والمعرة ففرّ الفلاحون، ودرست القرى، ورعيت الزروع والكروم والمقاتي[٣].

ويذكر أن عقب ذلك قبض على فياض، وسجن، واستقرت الإمرة لأخيه حيار، فسكن الشّر، وسكنت القبائل، ومما يذكر التاريخ أيضا عنه: أن الأمير

---

(١) رحلة ابن بطوطة ص١٧٤.

(٢) عشائر الرقة والجزيرة، محمد عبد الحميد الحمد، ط ١، ص ٩٧.

(٣) تاريخ معرة النعمان، محمد سليم الجندي، دمشق ١٩٦٣.

حيار قدم دمشق قاصدا الديار المصرية ليصطلح مع الأمير يلبغا، فتلقطه الحجبة والمهمندازية والحلق وخرج الناس للفرجة، فنزل القصر البلق بدمشق وقدم معه نائب حماة، وخرج معه ثاني يوم إلى الديار المصرية[١].

وابن خلدون يذكر أن الأمير مدلج توفي في سنة ٧٧٧ هـ[٢] .

(١) عشائر الرقة، ١٠٣.

(٢) العبر، لابن خلدون، ج٦ ص١٤.

الأمير مدلج بن ظاهر

السلطان العثماني "مراد الثالث" أوكل لمدلج بن ظاهر بن عساف بن نعير البوريشة، خفر طرق التجارة بين حلب وبغداد والطريق بين حلب ودمشق.

ذلك ما يذكره الرحالة "بترو دي فالي"[١] حول هذا الأمير.

ومصادر أخرى تؤكد أن مدلجاً أُعطي تيماراً "إقطاعاً" على البليخ وله سهم في كل الأنهر الجارية، وكان له وكلاء من قبله يجبون له الضريبة والخراج، كان يطلق عليه "صوباشي" وقد أصدر والي حلب سنة ١٥٧٥م أمراً إذا بوّر الفلاحون بعض الأرض فعليهم دفع خراجها[٢].

وكان مدلج ذا مرتبة عالية تقدم له الدولة مقابل كل جندي أثناء الحرب ٣٠٠٠ أقجة .

ومما يذكره التاريخ عنه أنه في سنة ١٦٢٢م طلب الأمير مدلج من الأمير فخر الدين المعني "سكبانية" ليعينوه على التركمان الذين أخلوا بالأمن في البادية فأعانه وأمده بـــ(٤٠٠) سكباني، وقدم له الأمير مدلج لقاء ذلك فرسه الشهبا المسماة "سعدى" لا نظير لها في ذلك الزمان، واشترك السكبان مع الأمير مدلج في معركة عنجر، إلى جانب الأمير فخر الدين.

---

(١) رحلة بترو دي فالي، ترجمة يعقوب سركيس، ج١ ص٨٢، بغداد، ١٩٢٢.

(٢) مجلة الحوليات الأثرية، المديرية العامة للآثار، دمشق، ١٩٧٠، مجلد ٣١، ص١٦٥.

وفي سنة ١٦٢٤ م ركب الأمير مدلج مع الوزير حافظ أحمد باشا والي الشام لتخليص مدينة بغداد من نائب الشاه عباس صفي خان، ولكن عساكر الشاه كسرتهم، ورجع الوزير إلى ديار بكر والأمير مدلج إلى سلمية. وفي حزيران ١٦٢٨م التقى الأب "باسفيك" في طريقه إلى بغداد بالشيخ مدلج ملك العرب[١] صار الأمير من الأغنياء، وكانت له خيمة سوداء كبيرة ولها حرس خاص وفيها السلاح والمال وصناديق المجوهرات .

وعندما جاء خسرو باشا لاستخلاص بغداد من أيدي العجم نكل بالأمير مدلج الظاهر وبعشائره حول الرها والرقة، وأثناء ذلك سقط مدلج من على فرسه، فهلك وطلبت قبائله الأمان، وكان ذلك سنة ١٦٣٠ م ونصّب الوزير خسرو أميراً على العربان سعد بن فياض[٢].

(١) تاريخ بغداد للشيخ عبد الحميد السويدي، تحقيق صفاء خلوصي، مطبعة الزعيم، بغداد ١٩٦٢، ص١٤.

(٢) مقدمة ابن خلدون، كتاب التحرير –القاهرة ١٩٦٦، ص ١٩. نقلا عن عشائر الرقة والجزيرة، نقلا عن أعلام البدو في سورية لتركي فرحان المصطفى - ص٢٩٣.

الأمير أحمد بك الأبو ريشة

(نجح البدو في عصر انهيار سلطة الخلافة العباسية، وقبل وقوع الغزو السلجوقي التركي، في إقامة دول خاصة في سورية وبلاد ما بين النهرين، بقيت سلالتها الحاكمة في السلطة طوال عقود كثيرة، امتدت أحياناً إلى أكثر من قرن كامل، مثلما حدث في حلب والموصل والحلة).

أوبنهايم البدو ج١ ص ٧٩

أحمد بيك: (أشوفك ماجبت علوم للديرة ولارديت..).

كلما ذُكرت سيرتك أو حضر اسمك تحضرني تلك المشاعر المتحسرة التي دفعت أفراد قبيلتك عقبك لإنشاد القصائد في إثر ذكراك وحالة الفقد التي عاشتها قبيلة الموالي .

التاريخ لا يركن للنسيان كما البشر.. لا يمكن لماضي البادية الشامية أن يتحاشى صيحات الحرب التي هزت أحشاء "الشمبل" مرات ومرات إحداها تلك الحرب التي اشتعلت بسبب الأميرة " فضيضة" .

للشجاعة شكل واحد: قلب.. قلب شجاع، صيحة يفجرها القلب لهذا هنالك قلوب شجاعة وأخرى جبانة وأخرى لا شيء.. الشجاعة كالعشق تطلب المستحيل..

في أتون الكبرياء وفي خضم نوبات النرجسية العظمى يولد بعض الأبطال..

أحمد بيك سيرة رجل لم يتكيف مع فكرة "المستحيل" قط، كل شيء ممكن إذا كنت شجاعا هذه المعادلة الحسابية الوحيدة التي دوزن عليها حياته الحافلة..

عاش هذا الأمير حياة ملونة درامية يصعب أن تتخيلها حتى في السينما.. فقد كان وسيماً شجاعاً جريئاً وسليل أهم إمارة قبلية عرفتها بادية الشام.. وأخذ لقب "بيك" بمنحة عثمانية - عادتهم بمنح الألقاب لقاء بعضاً من الولاء "المؤقت" غالباً من طرف البدو.

حارب من خلال الأهواء وعبر كتلة الطين التي سوته..

إنها "الجينات" التي تتوغل في الدم.. لهذا البطولة والشجاعة.. أسلحة موروثة..

الشجاعة: السر المعلن والواضح الذي أنجب هذه الأسماء وفي كثير من الأحيان قَتَلَها..

تنكر ما تراه عيناك، تنكر التراب الذي تدوسه فتطأ على أرض من أحلام فتحلم بتحطيم الآفاق حيث لا تخوم ولا حدود.. حتى تبلغ الحقيقة الفجة للحياة: الموت. لكن قبيل أن تغمض عينيك وللمرة الأخيرة ألق التحية على الأشياء كلها في لحظة.. لحظة تراهن على اللايقيني في الوجود.. ما يهمك من مفردات سيستخدمها ربما مؤرخون أو شعراء أو أحد مثلي: يعيش دهشة ليست محايدة ولا تشوبها شائبة.. لك شرف المحاولة من أراد أن يعطي المستحيلات وجوداً ممتلئاً بالدم والتراب.. وجوداً حقيقياً مجسداً.

أحمد بيك..

الأجداد يعششون في دمائنا وينهضون فجأة، هل "أنت" أحمد بن سليمان البوريشة؟ أمير الموالي الذي كان مركزه في عانة على الفرات، وذكره الرحالة الفرنسي "تكسيرا" عندما مرّ بتلك المناطق عام ١٦٠٤ م، وقال:

(إن الملك الحاكم في مدينة عانة أمير عربي يُدعى أحمد البوريشة، وإن سلطته تمتد إلى مناطق واسعة، وهو غير خاضع للسلطان التركي، وعلى جميع المارين في منطقته أن يدفعوا الرسوم عن البضائع التجارية، عن كل حمولة خمس دوكات، ولكن أمناءه الموكّل إليهم استيفاء الرسوم يبتزون أموال المسافرين، وبذلك تصل الرسوم إلى عشرة دوكات، أو أكثر، وكانت الرسوم تُدفع على الأحمال وليس بموجب الأوزان أو الأعداد أو القيمة، ولا يوجد سوق في المدينة لأنّ الأمير كان يمنع ذلك خوفاً من هجمات الأعراب عليها، وكثير من الحاجات يمكن شراؤها من البيوت، والنهر يحوي على كثير من السمك الذي لا يأكل الأهلون إلا القليل منه، والتجار الذين شاهدتهم أكثرهم من الأكراد الذين يتاجرون بالحرير ويدفعون عن كل حمل حرير خمسة دوكات، أما تجار الموصل فهم يتاجرون بالأقمشة الرقيقة والعفص الذي يشحن إلى طرابلس الشام وبغداد..).

أحمد بيك.. هل تسنى لك أن تقرأ عن أحد أجدادك:

ظاهر بن عساف بن عجل بن نعير البوريشة الذي كان أمير عرب الشام، وله قوة وبطش "يمسك الدرهم من الفضة بإصبعيه ويفركه فيذهب نقشه، ويفتت الحنطة بين إصبعيه، ومن عجيب أمره أن شخصا شرب لبنا حليبا وكان بيد امرأة، فشكته إليه، فاستخبره فأنكره، وحلف بحياته أنه لم يشربه، فطعنه برمح كان بيده، فإذا باللبن خارج من جوفه، فأمر المرأة بأخذ بعير من بعرانه عوض لبنها"[١].

---

(١) الليدي آن بلنت: قبائل بدو الفرات، ص ٤٩.

ما يذكره التاريخ حول هذا الأمير أنه ظهر في العهد العثماني وكان في زمن السلطان سليمان القانوني.

كذلك :

الأمير **خالد العجاج** اشتهر هذا الأمير بشجاعة خالصة وكرم لا يضاهى، حكم بين عانة وهيت، ومن الحوادث الشهيرة والتي ذكرت في أكثر من مصدر تتعلق بكرمه: (وكان خالد العجاج - لكرمه - قد باع فرسه الأصيل المعروف "بابن العرب" إلى والي بغداد "بكتاش خان" بمبلغ خمسة آلاف غرش ليسدد فيها عوزه، ونال الحصان مكانة في عين الوالي الذي زينّه بالحياصة الذهبية دون ركوب، فساءت أخلاقه وصار شموساً، فجاء الوالي بخالد العجاج لترويضه، فركبه وأمسك بيديه أربعة أقداح ماء وصار يرشقه بالماء كلما رأى منه تصلباً وشموساً، وبذلك أصلحه)[1].

ويذكر أنه قتل بيد مملوك يجيد الرمي بالبندق فأرداه قتيلا في عام ١٦٤٤ م بينما كان يخفر قافلة تجارية بين حلب وبغداد .

أحمد بيك، دخل مرويات ديرة الشنبل وخلّف وراؤه انطباعات وقصص وحكايا، كثيرة يمكن التقاط الكثير منها.. قيلت على ألسنة الشعراء والأجانب والرحالة، حروب كثيرة شنها أو خاضها أو أعلنها.. عدة مرات خاض حربا لأجل الحصول على امرأة جميلة.. اعتقلته ذات مرة السلطات العثمانية مع عشرة من زعماء الموالي ولضمان كف سيطرته على ديرة الشمبل وماجاورها، أودعته السلطات العثمانية جزيرة "ألبيا" واستطاع مع أصدقائه اجتراح معجزة بالفرار من معتقل ألبا في بحر إيجه بعد اعتقال دام سنوات..

أحمد بن محمد باشا الجهجاه بن محمود بن حمد الأزرق أمير الموالي.

ربما أكثر ما يرسخ في الذهن الأول ما أوردته الليدي آن بلنت في حديثها عن أحمد بيك: (كان أحمد ذا قدرة جبارة ويعد عملاقاً، إذ يبلغ طوله

---

(١) أوبنهايم: البدو، - ج١، ص ٤٥٤.

ستة أقدام، ووسيماً وشجاعاً وكنا نسمع عنه الأحاديث التي تصفه بالاتزان بين البدو وهم يقولون: "آه عليك أن تري أحمد الموالي.. إنه يحب الخيول العملاقة التي تقدر على حمل جثته الكبيرة، ومظهره وحده يجعل ثلاثين شخصاً يفرون من أمامه، كان عمود رمحه بطول ستة عشر قدماً، وفي جسمه آثار لجروح قديمة متعددة. وكان قد أقسم أن لا يموت في فراشه كما يموت البعير، ومع ذلك فهو محارب نزيه وشريف). وفي كتابها رحلة إلى نجد تحدثت الليدي بلنت عن سهرة جميلة تحت ضوء القمر استمتعت خلالها بسماع قصة حياة أحمد الموالي والتي رواها لها مرافقهما عبد الله الذي رافقهما كدليل من مدينة تدمر..

هذا إضافة إلى ما سمعته من صديقها القنصل الانكليزي في مدينة حلب السيد "سكين" الذي رافقها مع زوجها في بعض مراحل رحلتها إلى قبائل بدو الفرات والقنصل كانت تربطه صداقة شخصية مع أحمد الموالي إثر حادثة سلب تعرض لها القنصل خلال رحلة كان يقوم بها على تخوم البادية، حين ظهر أحمد الموالي بالوقت المناسب وخلص القنصل من قطاع الطرق..

لكن أحمد بيك الموالي كان قد توفي قبل سنتين من تاريخ قدوم الليدي آن بلنت مع زوجها الكابتن ولفرد بلنت وقيامهما بسلسلة رحلات إلى البادية.

ويذكر أوبنهايم: (كان أحمد بيك عقيد القبيلة في حياة أخيه عارف وعملاقاً وذا قوة بدنية خارقة، قتل عام ١٨٧٥ م خلال إحدى المعارك عن عمر يقارب الأربعين عاماً).

وأحمد وصفي زكريا يذكر كيف اختلف أحمد الموالي مع ابن عم له "الأميرمحمد الخرفان" حول واحدة الأميرات وكانت تدعى "فضيضة"، كان كل منهما يرغب بالاقتران بها، فلما ظفر محمد الخرفان بالأميرة فضيضة ثارت ثائرة أحمد بك الموالي، وهنا لجأ إلى الحديديين مستعيناً بهم على ابن عمه،

زكريا ص ٥٢٦ (وكانت منازل الحديديين في تلك الآونة تمتد من منبج إلى الجبول، ومنازل الموالي في كورة العلا، وتقابل الفريقان في موقع يدعى تل حلاوة في أقصى شرقي قضاء معرة النعمان، وتلاحما فيه، فكانت الدائرة على الموالي، وظل الحديديون يضربون في أقفيتهم، حتى أوصلوهم إلى السعن الأسود قرب حمص، فذهب محمد الخرفان إلى بعلبك واستعان بقوة يرأسها أحد أمراء آل حرفوش، ومشى بهم وبمواليه على الحديديين، وجرت معركة هائلة بينه وبينهم "أو بينه وبين قائدهم ابن عمه أحمد بيك" وذلك في سفح جبل زين العابدين شمالي حماة في ٨ تشرين الثاني ١٨٥٨م فذبح محمد الخرفان وانكسرت جموعه، وكان شيخ الحديديين إذ ذاك جرخ الإبراهيم جد نواف الصالح، وعقداء حربه حمود بن مصقادة وفصعلة، ودفن محمد الخرفان قرب قرية قمحانة شمالي حماة، ووقعت بعدها معركة أخرى ذبح فيها الأمير حسن الإبراهيم جرخ الإبراهيم الحديدي .

ثم تصالحت العشيرتان صلحاً حسناً وصفت قلوبهما، وأيدا هذا الصفاء بعد حين بالمصاهرة حين اقترن فيها صالح الجرخ الإبراهيم بابنة الأمير أحمد بيك، واقترن أحمد بيك بابنة صالح الجرخ الإبراهيم). حالت تلك المصاهرة دون المزيد من الحروب إلى عدة عقود لتعود بعدها سلسلة حرب طويلة بين الحديديين والموالي.

وبعد ذلك غزا الأمير أحمد بيك الموالي قبيلة الحسنة في نواحي حمص وأراد اختطاف فتاة حسناء كانت تدعى "حربة المزيد" وهناك دارت عليه الدائرة وقتل..

وبعد مقتله رثته ألسنة الشعراء بقصائد عديدة.

الأمير طراد العبد الإبراهيم

كما أجداده: منطق يورث.. بالشجاعة.. تبدع تقتحم كل شيء وتجرف الدروب لتسويها من جديد، بالشجاعة تنعتق، تبدع وجودك أنت. ثمة شخصيات يعصف حضورها على غيرها من بني البشر .

بالشجاعة نعطي الحياة وجهاً.

البدو: لا يحاربون لأجل الحرية لأنهم.. أحرار.. لكن كل ذلك تغير مع التغيرات "القوانين" التي طبقها جمال عبد الناصر والتي عصفت بسورية في منتصف القرن العشرين وكان هدفها الأول الحد من حرية تنقل القبائل والتضييق على الأمراء والشيوخ وأكثر من ذلك إزاحتهم وتنصيب شيوخ موالين للحكومة أي ذاته "تكنيك الاستعمار" لكنه بعد الاستقلال من الفرنسيين أصبح يتم ذلك بيدٍ عربية. وطراد عبد الإبراهيم عاصر تلك المرحلة المحرجة بحق كل أبناء الذوات.

طراد بن عبد الإبراهيم، أمير الموالي الشماليين ولد في عام ١٩٢٧ م اشتهر بشجاعة قلّ مثيلها وكان مضرباً للمثل بالجرأة والرجولة، تولى إمارة الموالي الشماليين بعد وفاة أبيه الأمير عبد الإبراهيم. يمتلك أراضي واسعة في منطقة جبال البلعاس "جبل شاعر". سيرة هذا الأمير "الجامح" تعدّ ضرباً من الاستمرارية التاريخية "المكررة" عن سيرة أسلافه، رغم أنه عاصر الزمن الذي تمت خلاله محاصرة القبائل واتباع سياسة الأمر الواقع معهم ابتداءً من تنفيذ قرار عبد الناصر بإلغاء قانون العشائر، وبالتالي الإصرار على تحويلهم

إلى "فلاحين" ومصادرة أراضي القبيلة التي ذادت عنها لمدة تقارب ألف وخمسمائة سنة. الأمير طراد لم يكن متقبلاً لحال القبائل وتحديداً قبيلته، فخلّفت هذه الشخصية الكثير من المرويات الشفاهية التي ما زال يتناقلها بدو ديرة الشمبل .

الأمير طراد كان رجلاً بدوياً من الطراز الخام. فالمعروف عنه عدم اعترافه بتوزيعات "الإصلاح الزراعي" فظلت الموالي بقيادته تجتاح القرى الجديدة المستحدثة قريباً عقب الإصلاح، فحتى بداية الثمانينات. كانت المنطقة تعاني من مزاجه البدوي و"تجاهله" للقرارات الحكومية وأسفر ذلك أحياناً كثيرة عن صدامات راح ضحيتها بعض الفلاحين. فالموالي ظلت تعتبر ديار الشمبل ومراعيها، حقاً لها، على اعتبار أن القبيلة ذادت عن المنطقة لقرون طويلة وحاربت لأجلها قبائل ضخمة مثل شمّر وحرَفت مسار الهجرات القبلية صوب الفرات بعد أن وقفت "الموالي" سداً منيعا في وجهها.

أمراء.. وسير

تاريخ أسرة أمراء الموالي زاخرة بالشخصيات القوية التي كانت تظهر على مدى تاريخها الطويل مما صان عراقة تسلسل الأمراء. فيذكر التاريخ أمراء آخرين خلدتهم الأشعار المروية لكن للأسف فقدت تفاصيل حيواتهم الخصبة بالقتال والمآثر بسبب غياب التدوين المكتوب لتاريخهم. مثال ذلك الأمير فياض السها وقيل إن هذا الأمير هو الذي ركز عمود الحمى وسط الحماد بين حدود العراق ونجد والشام ومنع العشائر القادمة من نجد أن تتخطاه وذكروا أن فياضاً خلف جهجاه وجهجاه خلف شخصية بارزة هو الأمير الكنج أبو سفايف وهذا خلف محمد الباشا.

في النصف الأول من القرن العشرين برز عدة أمراء ترأسوا فرق الموالي المنقسمة إلى الموالي الشماليين "قوم الأمير عبد الأمير" وفرق الموالي القبليين وهم قوم الأمير شايش عبد الكريم.

الحديديون

(يدين الحديديين بهذا التطور إلى أسر شيوخهم، التي عرفت كيف تستغل فرص تراجع البدو الرحل، وتفيد من تطورات حقبة ما بعد الحرب. نجحت الأسرة ، أول الأمر، في تجميع نواة قبيلة البوكنش وأتباعها من حولها، ثم أخضعت بقية العشائر لسلطتها، فحلّ التنظيم السياسي الصارم محل روابط الدم الواهية – عدد الحديديين الأقحاح في القبيلة قليل جدا - وتنامت ملكيات القبيلة بسرعة وتوسعت مناطق انتشارها، فزاد قطر دائرتها إلى أكثر من الضعف بين عامي ١٨٨٠ م و١٩١٤ م. وأصبحت القبيلة شبيهة بالبدو الأقحاح في عاداتها وتقاليدها وحتى في لغتها)[١].

شهدت حقبة ما بعد تطور معاكس، تسارع مع سنوات الجوع عامي ١٩٣٢ و١٩٣٣ م، التي جعلت الحديديين ينتقلون إلى الزراعة، ولكن دون أن يفقدوا شيئا من تماسكهم وقوتهم القتالية، لأن المؤثرات التفكيكية، التي تصاحب استقرار البدو عادة، لم تحدث عندهم، لأنهم استقروا غالباً في أراضي شيوخ مشايخهم، أو بقوا تابعين لهم بسبب ما كانوا يقدمونه لهم من سلف مالية .

أوبنهايم يعتمد في كلامه السابق مدونات يشير إليها بقوله "الملاحظات الممتازة حول التنظيم السياسي والاجتماعي للقبيلة لدى البرت دو بوخمان:

---

(١) أوبنهايم ج١، ص ٤٣٤.

مودنات حول صراعات قبيلتين تربيان الأغنام في سورية: "الموالي والحديديين. باريس ١٩٣٤ م".

ويؤكد من وجهة نظره الشخصية رأيه في بروز هذه القبيلة كقوى قبلية لا يستهان فيها[١]: (غير صعود الحديديين السريع توازن القوى في ديرة الشنبل وسببّ نشوب صراع مفتوح مع الموالي، الذين يعتقدون أنهم لا زالوا سادة تلك الأرض، وكان الحديديين يدفعون لهم الأتاوات في الماضي. وقد قدمت حادثة تافهة المناسبة المطلوبة: فقد تشاجر رعاة قبيلة "الأبرز" ورعاة من عشيرة "لهيب" التابعة للحديديين حول استخدام بئر ماء، فما كان من اللهيب إلا أن طلبوا الانضمام إلى الموالي، لاعتقادهم أن حقوقهم قد انتهكت، فكان جواب الحديديين على هذا الانفصال إعلان الحرب على الموالي. بدأت الأعمال العدائية عام ١٩٢٠ م)

بعد تدخل القوات الفرنسية لصالح الحديديين هدأت الحرب تدريجياً بين القبيلتين، لكن ما لبثت أن استعرت من جديد مع مقتل زعيم الموالي الأمير عبد الرزاق..

تتوزع قبائل الحديديين صيفاً بين حلب وحماة إلى الشرق من خط السكة الحديدية، حيث يزرعون أراضيهم، وفي الشتاء يرحلون باتجاه إسرْيا والبلعاس. منذ عام التزمت قبائل الحديديين بتسوية حكومية وضعت تخوما وحدودا لتنقلات القبيلة بحيث لا تتواجه مباشرة مع قبيلة الموالي التي تنتشر أيضا في المنطقة وتمت مبادلة المناطق المتداخلة نهائيا في عام ١٩٢٨ م .

لليدي بلنت وجهة نظرها بشأن الحديديين[٢]: (إن البدو الوحيدين الذين يملكون القوة تحت الحكم التركي هم الحديديون لأنهم على احتكاك دائم بسكان

---

(١) المصدر السابق، ص٤٣٥.

(٢) الليدي آن بلنت: قبائل بدو الفرات ص ٤٦٧.

المدن، ومن المحتمل أنهم في احترام بمنأى عن غارات السلب العام والغزو المتواصل، ومن الصعب والمدهش أن تظن بأن ذلك هو وراء حالتهم الجيدة بالنسبة للقبائل الفقيرة من حولهم.

أما وصفي زكريا الذي زار ديارهم خلال إعداده لكتابه عشائر بلاد الشام وقابل نواف الصالح فقد وصفهم بقوله: (أكبر عشائر الرعية في محافظة حلب عدداً، وأكثرها ثروةً، وأميزها بإتقان تربية الماشية، وصنع السمن المعروف بالحديدي، المنقطع النظير في جودته ونفاسته، وأشدها استعداداً للتحضر والاستقرار في القرى، والتعلق بالحرث والزرع..)[1]. أيضاً اشتهرت قبيلة الحديديين بجمال نسائها وخلال حربهم الشهيرة مع قبيلة الموالي كان هؤلاء كلما تحالفوا مع قبيلة لشن حرب على الحديديين يرغبونهم بسبي نساء الحديديين الجميلات وعملياً هذا لم يحدث لأن الحديديين استطاعوا الصمود دائماً في وجه غزوات الموالي...

ووصفي زكريا يشارك غيره من المؤرخين وحتى المستشرقين أنه لولا بزغ فيهم نابغة هو جرخ الإبراهيم، فضم شمل فرق الحديديين ورتب أمورها لما برزت كقوة مناوئة للموالي في وقت قياسي، حيث استقرت الرئاسة في يد (آل إبراهيم) وبعد وفاة جرخ خلفه ابنه صالح، الذي ورث عن أبيه الذكاء والنباهة وباقترانه بأخت الأمير عبد الكريم الأحمد آل أبو ريشة، سما عرقه بذلك الزواج وبنفس الوقت صاهر جيرانه الأقوياء قبيلة الموالي.

ويذكر كذلك وصفي زكريا أنه في القرن التاسع عشر كانت الدولة العثمانية تعهد إلى الحديديين بحراسة الطريق بين حلب وسراقب، كما كانت تعهد حراسة ما بعد سراقب إلى الموالي، فكان الحديديون يتقاضون رسوم مرور القوافل، وقد جعلتهم هذه الوظيفة في اتصال مع ولاة حلب وأهلها، فهذبت من بداوتهم إلى حد بعيد .

---

(٢) عشائر الشام: ص ٥٢١.

صالح الجرخ

ماكس فون أوبنهايم التقط صورة لمنزل "خيمة" صالح الجرخ "الكرخ" كتب تحتها خيمة صالح الجرخ شيخ مشايخ الحديديين في ربيع ١٨٩٩م[١]. حيث يمكن تمييز سيماء رجال قبيلة الإبراهيم التي يشتهر أفرادها رجالاً ونساءاً ببياض البشرة والشقرة في كثير من الأحيان والقامات الطويلة.

نواف بن صالح بن جرخ بن إبراهيم بن كنش بن جادر بن حمد بن فاضل بن فضل الله بن محمد بن علي بن حسين بن منصور بن قاسم بن أحمد ابن حسين بن جعفر بن عبد الرحيم بن علي بن محمد عجان الحديد.

عن جرخ جد نواف الصالح قال أوبنهايم: (كان ذكياً، شجاعاً، وذا ثروة كبيرة، وقد حاز على عدة رتب وأوسمة في العهد العثماني، منها كما جاء في سالنامة ولاية حلب عام ١٩٠٣ م ومن بين هذه الأوسمة: "نيشان مجيدي رابع" سنة ١٣١٨ هجري).

وبعد وفاة الشيخ جرخ، يذكر الأستاذ أحمد وصفي زكريا[٢]: "ثم خلفه ابنه صالح في تلك المناقب وزادها علوا باقترانه بأخت الأمير عبد الكريم الأحمد بوريشة فسما عرقه بهذا الزواج وجعل لنفسه بذلك منزلة تضارع ما لأمراء الموالي. وأعقب نواف وصفوك ونايف وأحمد وفندي ومذود ومعيوف وخليف ومحمد.

---

(١) أوبنهايم- البدو ج١ ص٣٩٣.

(٢) المصدر السابق ص ٤٣٦.

فيما أوبنهايم ذكر نواف الصالح على النحو التالي[1]: (واصل نواف الصالح "ولد حوالي عام ١٩٨٨م" عمل آبائه، وهو ربيب القسطنطينية، وكان ضابطاً في الجيش التركي واحتفظ برتبة وراتب المقدم، حين تولى المشيخة حوالي عام ١٩١٥ م سعى نواف الصالح بعد الحرب العالمية إلى الالتحاق بالحكومة الجديدة، وحصل على ما أراد، فصار فارس جوقة الشرف وعضو الجمعية الوطنية السورية لعام ١٩٢٨ م. أبدى نواف براعة كبيرة في سياساته العائلية كما في قيادة قبيلته. وقد تصاهر مع السبعة والموالي واشترى ممتلكات واسعة. واستأجر مناطق شاسعة قرب الخرايق من إدارة الأراضي، أصلح مرافق ريها المعطلة واشترى لفلاحتها محراثين يعملان بالمحركات.. عمل نواف قاضياً بنجاح وقرّب الحديديين بإحداث هذا المنصب الذي كان غير موجودا لديهم حتى ذلك الحين، من البدو الأقحاح..).

لا بد من تصحيح كلمة "خرايق" كما وردت لدى أوبنهايم حرفياً، الصحيح أن نقول "خرايج". وقصد بقوله "قاضياً" أن يقول "عارفة" أي قاضي وهذه الميزة قلما تتوفر لدى شيوخ البدو، لكن كان هنالك بالفعل شيوخ وقضاة بنفس الوقت. أحمد وصفي زكريا قابله شخصياً خلال إعداده لمؤلفه "عشائر الشام" وأبدى إعجابه بشخصية نواف الصالح حيث ذكره بقوله[2]: (يعدّ أذكى قومه جناناً، وأوسعهم عرفانا، وأطلقهم وجها ولسانا، ولا غرو فهو خريج مدرسة العشائر والمدرسة الحربية في عهد السلطان عبد الحميد، عمل في الجيش العثماني مدة، وبلغ رتبة رئيس ومارس حياة الحضارة والنظام، وبعد أن تقلد مشيخة العشيرة اتسعت سلطته وعلت كلمته).

---

(١) أوبنهايم - البدو ج١، ص ٤٣٦.

(٢) عشائر الشام، ص ٥٢٤ .

نواف الصالح قُتل بيد أحد عبيد الموالي في حلب عام ١٩٤٩كان خارجا من فندق بارون العبد كان يتبع الأمير الشايش أمير الموالي آنذاك. وتجددت الغزوات بين الطرفين بعد مقتل نواف الصالح على شكل مناوشات فردية بين القبيلتين الموالي والحديديين، إلى أن تم الصلح بين القبيلتين بإشراف الحكومة الوطنية آنذاك وبحضور شيوخ ورؤساء وأمراء القبائل في المنطقة.

فيصل النواف الكرخ

من.. "ديرةٍ ماحد وِطَاها"

غريب، رغم أني التقيتك في مناسبات عدة، لكن لم أجرؤ وأنثر فضولي المعتاد بسيل من الأسئلة التي اعتدتُ التفوّه بها بمناسبة وغير مناسبة، ربما السبب وقتها أني كنت طفلة توزع اهتماماتها يميناً وشمالاً.. لكن صورتك تقترن بذهني بسياراتك الكثيرة. اعتدت أن أربط الرجال بسياراتهم. صورة عمي والذي كان صديقك اقترنت بذهني بسيارة الشفروليه الحمراء. لكن أنت بالذات اعتدت تبديل السيارات، مرسيدس.. دودج.. فورد.. وكنتَ مغرماً بالسيارات الفاخرة المكشوفة تحب التجول بسيارة لا سقف لها.. حالما تظهر سيارتك عن بعد يحزر الجميع الضيف القادم.. وأسمع الجميع حولي يتراكضون ويتهامسون: إنه فيصل.. وكأن لا "فيصل" غيرك في الشمبل .. كأن ما من أحد غيرك يحمل هذا الاسم.. وفور وصولك سينحر خروف وتُعد وليمة. وسأسترق السمع إلى النسوة وهن يقمن بإعداد الطعام وقد أخذتهن شهوة الثرثرة وانغمسن بسرد زيجات فيصل النواف المتكررة، فقد تزوج أجمل جميلات العرب في ذلك الوقت وكانت حياته الشخصية مثيرة بقدر ما كانت حياته العامة..

أكثر ما أتذكره عنك مشيتك الأنيقة المتأنية وعينيك الخضراوين وسيماءك التي تميل إلى الشقرة.. وهذا الطراز من الصفات العرقية تميز به غالب بدو قبائل الشمبل - ربما - بسبب قِدَم وجودهم النسبي في المنطقة مقارنة بقبائل أخرى وفدت على المنطقة بعيد الفتح الإسلامي بقليل..

غريب أيضاً.. لم أعثر على الكثير عنك فقط بضع سطور في أحد كتب التي توثق لأعلام البدو:

(ولد في عام "١٩١٥" ورث المشيخة بعد مقتل أبيه نواف الصالح في عام ١٩٤٩ ونجح بالوصول إلى المجلس النيابي مرتين، اشتهر بالذكاء والنباهة، يخلف انطباعاً جميلاً أينما حل، كان شخصية محبوبة من كل الأطراف) .

لشح المصادر المكتوبة بشأنك، سأعتمد على قصتين رويت لي شفاهياً من بعض المعمرين في القبيلة، وأبدأ سيرتك ابتداءً من سيرة الصقور..

أكثر ما اشتهرتَ فيه غرامك بتلك الكائنات المحلقة..

بلى اشتهر فيصل النواف بولعه بالصيد والقنص ويعتبر من أهم وأوائل رواد رحلات المقناص الطويلة ولم تزل قبيلة "الإبراهيم" التي ينتمي إليها آل **الجرخ** أو **الكرخ**، شيوخ الحديديين، تشتهر بصيد الصقور الحرة على أنواعها، **وكانت بداية تحويل هواية الصيد بالصقور الحرة إلى "تجارة" مربحة أحياناً بشكل خيالي، على يد فيصل النواف.**

في إحدى رحلاته تلك قصد بها براري العراق، وعلى أحد الطرق لدى مروره من مخيم للبدو تعطلت سيارة فيصل النواف، راح يتمشى حول السيارة خلال انهماك مرافقيه بإصلاح الإطار المعطل، مرّ فتى من المخيم القريب من الطريق وحاول معرفة رجال السيارة، ولما كان من المعيب لدى البدو التوجه بالسؤال مباشرة عن اسم بدوي آخر سأل الفتى فيصلاً عن المكان الذي قدموا منه، فقال له فيصل: "حنّا من ديرةٍ ما حد وطاها" - أي لم يطأها أحد - استغرب الفتى من تلك الإجابة. وعاد أدراجه إلى مضاربه فيما انتهى رجال فيصل من تصليح الإطار وانطلق مجدداً في رحلته.

خلال طريق العودة بعد عدة أيام بينما سيارة فيصل تقطع الطريق ذاته الذي تُقب عليها إطار سيارته لحقت به سيارة من مخيم البدو القريب، السيارة التي أوقفت سيارة فيصل كانت تقلّ شيخ القبيلة في تلك المنطقة، ترجل وطلب باحترام بالغ قبول دعوته للغداء في منزله، فيصل النواف لبى الدعوة، وبعد انتهاء الغداء سأل المضيف ضيفه مستفهماً منه حول ما قاله للفتى الذي سأله قبل أيام عن ديرتهم وقتها قال له فيصل: "حنّا من ديرة ماحد وطاها". فقال له الشيخ: "كلامك عن"ديرةٍ ماحد وطاها" يعني إنك واحد من اثنين إما: ابن جرخ أو أمير الموالي؟".

لم يكن صعباً على أي بدوي في البادية الشامية أن يعرف أن ديرة الشمبل هي "ديرةٍ ماحد وطاها" لأنها أرض ذاد عنها الموالي والحديديون بشراسة. أمير الموالي قبل قرون طويلة نصب عمود "الحمى" ومنع أي قبيلة أخرى من تجاوزه. وظلت منيعة ولم تفلح أي قبيلة في تثبيت موطئ قدم لها هناك.

وعن الحكاية الثانية كانت عندما حدث ورافق فيصل النواف شيخ السْبَعَة راكان المرشد في رحلة صيد إلى الأردن، ونزلوا في ضيافة قبيلة "الخريشة"، كان فيصل يلف كوفيته حول وجهه بشكل لم تظهر منه إلا عيناه كان المضيفون يعرفون ضيفهم شيخ «السْبَعَةِ» راكان المرشد لكن لم يعرفوا فيصلاً، وليست من عادة البدو سؤال ضيفهم عن هويته إلا إذا أراد الضيف التعريف عن شخصه من تلقاء نفسه .

فيصل كان يجلس إلى جوار راكان فيما ثمة رجل عجوز يحمّص القهوة جالساً وقد مدَّ رجله أمامه، التي بدت أنها معطوبة منذ زمن طويل، عينا العجوز لم تفارق وجه فيصل وبعد وقت من تأمله ملياً سأل العجوز راكان المرشد عن جليسه يقصد فيصلاً فقال له راكان: "من ربعنا" - وهذه

إجابة مهذبة تدل على التحفظ في الإجابة – فعاد العجوز للسؤال مرة أخرى وراكان المرشد يجيب بتأفف: "أعلمتك إنه من ربعنا" لكن العجوز ظل يتململ ووجه السؤال مرفقاً باليمين وسأل مرة أخرى "أحلفك اليمين من هو جليسك؟" فأجابه راكان بقوله: "فيصل الجرخ" فصاح العجوز ومدّ رجله المعطوبة: "ويلي هذا صواب جدك.. عرفتك من عينيك".

العجوز كان يقصد صالح الجرخ الذي صدّ قبيلة "الخريشة" لدى محاولة جريئة منها لاجتياح حدود الشمبل في نهاية القرن التاسع عشر فكانت حرباً ضروساً وقد روى عنها المعمرون حكايا كثيرة وكيف أن المعركة احتدت إلى حد انتهت فيه الذخيرة وتحول القتال إلى اشتباك بالأيدي والخناجر على ظهور الخيل وقتها نجح صالح الجرخ شيخ الحديديين بردّ "الخريشة" على أعقابها. وذلك العجوز ذي الرجل المعطوبة كان واحداً من الذين تواجهوا بشكل مباشر مع شيخ وعقيد حرب الحديديين والذي هو بذاته كان جداً لفيصل النواف الذي نزل ضيفاً عابراً على "الخريشة" بعد نصف قرن من تلك المعركة والعجوز لم ينس نظرة في عيني صالح الجرخ أورثها لحفيده فيصل النواف..

حتى بريق العينين لا نكتسبه اكتساباً إنما يورث توريثاً..

الحَسَنَة

يذكر فتح الله الصايغ الحلبي[1]: (وفي مساء اليوم الثاني أمر العربان بالرحيل صباحاً. ولما كان الغد، قبل طلوع الشمس، ارتمت كافة البيوت وحُملت حالاً، وركبت الرجال على خيولها وأناس على الجمال، والنساء الوجيهات في الهوادج المجوَّخَة[2] وسارت الجمال غير المحملة أماماً مع الرعيان وبعدها الظعون أعني – الجمال التي تحمل "البيوت والألبسة"، وأمام الجميع الخيل يتقدمها نحو عشرين خيالاً مجربين بالحرب والقتال يسمونهم السلَف، وعليهم أن يراقبوا السير ليروا من يأتي من بعيد ومن يكون في الطريق. وهذا أول رحيل رأيناه - وهذا شيء رائع حقيقة ولاسيما رؤية نساء أعيان القبيلة في الهوادج. فالهودج مثل السرير يوضع على ظهر الجمل، وله مثل السرج، وهو مركز على قوائم من خشب علوها نحو ذراعين مشدودة بعضها ببعض. وهو واسع، تقعد فيه المرأة وتضع أولادها معها، وداخله مغطى بالجوخ الوردي والأصفر، وعلى دائره شرَّابات ملونة من الصوف. والنتيجة شيء ظريف ولائق بهن. أنا نساء الفقراء فإن كل واحدة منهن تعمل لها على ظهر الجمل مثل بركة مدورة من البسط والثياب، وتقعد هي وأولادها في وسط هذا المحل الذي يسمونه حصاراً أي أنه يحصر الأولاد ويمنعهم عن الوقوع. ونساؤهم على الإطلاق يلبسن فقط الثوب الأزرق مثل القميص،

---

(١) رحلة فتح الله الصايغ الحلبي: تحقيق د. يوسف شلحد - دار طلاس - ص ٧١.

(٢) أي ملبسة بالجوخ.

وفوقه عباءة حساوية، وعلى رؤوسهن شملات سوداء طولها ثلاثة أذرع، طرفها على الرأس وباقيها ملفوف على الرقبة، وأما الطرف الثاني فمرمي وراء الظهر، وفي أيديهن أساور من الزجاج، ومرجان مضموم دورين أو ثلاثة. . ثم وصلنا قبل العصر إلى المحل الذي كنا نقصده، وهو مكان يقال له المخرّم، بالقرب من حماة، لأن سيرنا كان إلى جهة الغرب. ولما قربنا تسابقت الخيل وكل واحد نصب رمحه في مكان، وربط فرسه بالرمح، والمعنى أنه يريد أن يكون بيته في ذلك المحل. فوصلت الظعون، أعني النساء والبيوت، وكل امرأة عرفت فرس زوجها ومحه، فنصبت البيت إلى جانب الرمح. وفي قليل من الوقت، بعد أن كان ذلك المكان خالياً من كل شيء، صار فيه بلد وأناس وجمال وخيل وبيوت بمقدار أهالي حماة. وماء ذلك المحل جمع من المطر، وكل تلك الأرض غدران مجموع بها الماء. وبالقرب منها أرض عالية أكثرها من الصخر وهي منقورة باليد ومملوءة من ماء الشتاء..).

ذكر المستشرق الألماني ماكس فون أوبنهايم في مؤلفه الضخم "البدو" حول أسرة شيوخ الحسنة:

(تعتبر أسرة شيوخ الحسنة التي تحمل أفرادها اسم ابن ملحم قديمة جداً وقد حافظت على احترامها وسمعتها الطيبة).

وتذكر كثيرا قبيلة "الحسنة" في كل ما كُتب عن الليدي استر ستانهوب التي قامت برحلة إلى تدمر تحت حماية قبيلة الحسنة في عام ١٨١٣م والتي كما يذكر مؤرخ رحلتها بول هنري - بوردو[١] أنها بادرت الأمير مهنا الفضل: (اعلم أنك قادر على أن تفعل ما تشاء، وأنني الآن رهن يديك ولكنني

(١) ساحرة الصحراء الليدي ايستر ستانهوب في الشرق، بول هنري- بوردو - ترجمة إزدهار متوج - محمد وليد الجلاد – دار الملاح – ص ١٢٧.

لا أخشاك وقد خلفت ورائي كل الذين يحموننني من جنود وأصدقاء لأبرهن لك بأنني اخترتك أنت وقبيلتك حماة لي). والليدي الانكليزية[1] التي اشتهرت بدهائها فعلت ذلك عقب رسالة من لاسكاريس تنصحها بالسفر تحت حماية قبيلة بدوية لأن الأتراك لا يسيطرون على أية بقعة خارج دمشق، إنما السيطرة كاملة للقبائل. وبالفعل توصلت إلى اتفاق مع قبيلة الحسنة وسافرت برفقة الأمير ناصر المهنا منطلقة من مدينة حماة صوب تدمر وتحملت نزق الأمير ناصر المهنا خلال رحلة طويلة حافلة بالمفاجآت لخاطر أن تصل إلى تدمر مدينة الملكة زنوبيا التي جذبت سيرتها أكثر من سائحة انكليزية[2].

---

(١) الليدي ايستر ستانهوب (١٧٧٦-١٨٢٩م) نبيلة انكليزية من أسرة لوردات، ذات شخصية مغامرة وقوية تميزت بذكاء حاد، مما أهلها لأن تكون أمينة أسرار خالها السير ويليام بيت رئيس وزراء بريطانية ومهندس سياستها في عصر نابليون، وكانت لها كلمة مسموعة في البلاط الملكي والأوساط السياسية الانكليزية لكن في عام ١٨٠٦ قررت هجر البلاط عقب وفاة خالها، وبعد زيارة قصيرة لجبل طارق ومالطة وجزر اليونان والقسطنطينية ومصر. رحلت إلى بلاد الشام فزارت القدس وعكا ودير القمر ودمشق، بعد أن اتصلت بالباب العالي ومحمد علي باشا وعبد الله الجزار والأمير بشير الشهابي وكبار ولاة العثمانيين وقادتهم وزعماء البدو وساحت في بلاد الشام كلها إلى أن اختارت أخيراً الاستقرار نهائياً في ظهر جون قرب صيدا، حيث توفيت فيه بعد أن حولته إلى قصر مزين بالحدائق والورود، وهنالك زارها الشاعر الفرنسي الشهير "لامارتين"، وخلّد تلك الزيارة في كتابه المعروف "رحلة إلى الشرق"، فوصفها وهي تعتمر عمامة بيضاء وثوباً تركياً فضفاضاً من الحرير الأبيض وتدخن التبغ وترتشف القهوة العربية التي كان يحضرها إليها العبيد كل ربع ساعة..

(٢) الليدي جين دغبي، والليدي آن بلنت .

فارس بن مهنا بن فاضل بن ملحم آل مزيد

جاء في مجموعة المحررات السياسية في سورية ولبنان عن فارس المزيد وخلاصته: (أنه في حدود سنة ١٢٧٥ هجري قام فارس المزيد رئيس الحسنة النازلة حول القريتين ونزع إلى الثورة ولطالما كان على خلاف مع الحكومة العثمانية فجاء إلى دمشق للصلح، فلما أحس منها رغبة القبض عليه انسل من دمشق خفية وجاهر بالعصيان) وذكر حسن الخضير في كتابه "الحسنة": واستلم الرئاسة فارس بن مزيد وفي عهده بلغت المعارك أشدها بين الحسنة والموالي في عهد أميرهم أحمد بك"[١] وقد جاء ذكره في سجلات أرشيف الدولة العثمانية في دفتر الصرة: (شيخ فارس بن مهنا بن فاضل المزيد وأعقب فارس: سعود وملحم وصفوق ومحي الدين ومحمد) .

ويورد تركي فرحان المصطفى في كتابه "أعلام البدو" وثيقة تشير إلى مشيخة فارس المزيد عام ١٨٧٨م مصورة عن الأصل الموجود في أرشيف الدولة العثمانية – استانبول.

(١) أعلام البدو في سورية: تركي فرحان المصطفى ص ٢١٦-٢١٧

محمد الملحم

إنه العداء الجذري والمستقل والفطري، الذي ميز الشخصية البدوية في بادية الشام والذي وَسَمَ معظم الزعماء أمراءاً وشيوخاً وعقداء حرب. فثمة ما يشكل استفزازاً لكل ما يمكن أن يناوئ وجوده الخاص ويبزغ اليقين حول حقيقة دم استوعب قروناً من الذاكرة.. والوراثة..

تحت ذاك الركام من الأطلال والأمجاد والهزائم ينبت برعم شجاع صاحب امتياز وراثي..

كبرياء مترامي الأطراف..

تلك المواصفات التي تشترطها الصحاري.. التي تُقرّ أن:

السلام صدأ، وفي وقت الوغى، لا دبلوماسيات لا كذب لا صفقات من تحت الطاولة لا بيادق.. فقط إشهار العداء..

ثمة قامة عنيدة غير دبلوماسية - عرفتها البادية السورية..

خلال الحرب العامة الأولى عام ١٨١٧ م اخترعت السلطات العثمانية مسوّغاً غير واضحاً لإعدام الشيخ الفارس محمد الملحم ، أشهر فرسان قبائل "عنزة"، وقالوا: إن ذلك لشقاوته ونزواته العديدة. لكن من المعروف إن سبب الإعدام هو عزم محمد الملحم على اللحاق بالأمير فيصل بن الحسين حينما نهض بالثورة العربية، فعلمت الحكومة التركية بذلك، وألقت القبض عليه وأعدمته .

تحدث عنه اسكندر يوسف الحايك اللبناني مؤلف كتاب رحلة إلى البادية والذي جاب البادية السورية بمهمة من قيصر روسيا للوقوف على مدى قوة العشائر. اسكندر الحايك كان قد لاقاه في براري القريتين في نيسان عام ١٩١٤ ولبى دعوته إلى مضارب عشيرته. وتكلم بافتتان عن المائدة التي لم تفتقد الشوكة والسكين وكان ذلك بمثابة مفاجأة للرجل البلاط الروسي الذي لم يكن معتاداً على هكذا ترف خلال تجواله.

(وقد أدى إعدام محمد الملحم إلى أن تنحاز الأحسنة وقتئذ إلى القضية العربية، فذهبت وناصرت المرحوم فيصلاً، ونالت منه أعطيات كبيرة، وكان الشيخ طراد وجماعته مع نوري الشعلان وخيالة الرولة حينما دخلوا دمشق في أيلول سنة ١٩١٨ مع الجيش الفيصلي) .

محمد الملحم أيضا كان شاعراً وترك وراؤه واحدة من أشهر القصائد في زمن قال القصيدة[١] قبيل إعدامه بحبل المشنقة التي غدت نفوس البدو على اختلاف انتماءاتهم القبلية :

يقــول محمــد الملحـــم قــصيدا ... بيوت مسطّــرة وســـط الكتــاب
سطوري تنقرا مــن عقــب منّــي ... وعلمي بالفــوارس والحـــراب
أنا من كان طــابع لــي زمــاني ... عقيد القــوم خدّم في وركـــاب
أنا اللي أرســلت علــم للــسرابا ... حرام إن كــان يتراجــع جــواب
أنا اللي كــان لي ســطوة قويّــة ... فوارس من لمــع سيفي تهـــاب
رجــال الــبغض دسّــوا دســايس ... وجــالي أمــر احــضرا للطــلاب
ألا يــا طــارش الخـــلاّن ســلّم ... على الديــرة ومع كــل الــقراب

---

(١) نلاحظ شاعريته الحقيقية في مخاطبته لزوجه "نوف".

القصيدة منقولة عن الموقع الالكتروني لقبيلة الحسنة.

وسلّم لي على حمص العذيّة ... وعلى كلّ من دق بالبيدا طناب
وسلّم لي على سعود عمّي ... وقله ما حسبنا هالحساب
ألا يا عمّ من ضيم الليالي ... نذوق المرّ من كثر العذاب
ووصلّي سلامي للرفاقة ... وكل من دقّ ما بين الحراب
وذكرهم لقانا بوسط وادي ... أسود الغاب ما بين الحراب
أنا مع عزوتي والعبد مفلح ... نشوف الموت ندحم ما نهاب
من النقعة للرستن وصلنا ... وبأرض الشام ربينا الصحاب
حزينة ديرة الشهبا علينا ... وبعد خيولنا تشكي الخراب
وعاد اليوم داير في ديارك ... غراب البين ساكن بالجناب
وأنا اللي أحسب الدنيا تدوم ... وأثاري الموت ما عنه هراب
أسير للعدا على الشام دربي ... على حبس غدا بأربع بواب
جميع الشام تتفرج علينا ... ودمعي فوق وجناتي سكاب
بكيت لموقفي ومصار فيني ... ودمع العين منه الصخر ذاب
أنا المحبوس ومقيّد بطوق ... وحولي عسكر شبه الذياب
إله الكون مطلوبي بحمرا ... وبيدي السيف اهجم كالنشّاب
وأطوح في عساكرهم جميعاً ... وبأخذ ثأر من قوم كلاب
يا برزة ويـن خيّالك محمد ... غدا مطروح ما يردّ الجواب
يقولون الأمير وشهو حواله ... غداً مطروحاً ما ردّ الجواب
ألا يا نوف هدّي ثم شيلي ... وروحي واسكني بأرض خراب
ألا يا طارش الخلاّن سلّم ... على الديرة ومع كل القراب
وريد أرسل سلامي يم هلنا ... سلامي مع هبوب الريح طاب

وسلّم لي علـى نـوف الحزينـــ ـة ألا يـا نوف شقّي للثيـــاب
ألا يا نوف قـصّي لـي جعـودك وحطيهـا بقبـري مـع التـراب
ألا يـا نـوف لـو تبكـي علـيّ سواد الكحـل وسـط العـين ذاب
ألا يـا نـوف نوصـيّك وصـية مـن بعـدي لا يغـروك الـشباب
ألا يا نـوف عنـد ديـب أشـبه كريم الأصـل رأسـه بالـسحّاب
ألا يا نـوف ربـي لـي جنينـي فرخ البـاز يـا طيـر العقـاب
عبـد الكـريم ربيتـك مـدلل تهجم على الطـواب ومـا تهـاب
وصـيتي لـك أبـد لا تزعلينـه عساه يـصير سـابق بـالحراب
علـى عـز المراجـل علميـه كرامة لخـاطري يـامّ العـصاب
على فرقاي نـوحي يـا حزينـة على طول الـدهر يـامّ الهـداب
ألا يـا نـوف عقبـي لا تخـوني وعهد الله احفظـي فـي غيـابي
أخـاف يحلّكـم طيـر المنايـا وتبقى الحـال طمعـات الـذئاب
وتلقي الـوالدة تبكـي ولدهـا ولا ينفـع بكـاهـا والنحّـاب
على علمي جموع العـدو جـوّكم كما يرقى لوى في وسـط غـاب
ألا يـا نـوف هـدّي ثـمّ شـيلي لبيت الفـضل هـم لـي صـحاب
ربـوع ينفعـون بيـوم غـارة حصون محـصّنة ضـدّ الغـراب
أيا بن الفضل يا راعي المواقـف حماً للبـيض يـا عـزّ الـصحاب
وختامي بالـصلاة علـى محمّـد نبـيّ الله يـا خيـر النـساب

طراد الملحم

ليس عبثاً أني مغرمة باسم "طرْاد" ربما لهذا سميتُ بطل روايتي سلطانات الرمل "طراداً"!

يحق لي أن أحب هذا الاسم مثلما يحق لمجرد اسم علم يتألف من أربعة حروف أن يثير خيالات البوادي وأن يؤجج سراباتها.. مقتفياً أثر خيط الدم الذي يسلك درباً عميقاً سحيقاً في الماضي..

يصرُّ قلمي أن يعرّفكم على أناس من هذا القبيل..

لتكون الأرواح حرة مثلما ينبغي لها أن تكون عظيمة بالمقابل ستكون مجروحة بالطموح..

الأَنَفَة لها ثوابها في الصحراء، الصحراء التي ستذكرك لأنك كنت شجاعاً شهماً نبيلاً، سترددد صداك..

فالصحارى لا تجامل..

كان الشيخ طراد الملحم أحد الشخصيات الوطنية وممثل لعشائر محافظة حمص، وصل إلى عضوية المجلس النيابي السوري في العام ١٩٣٢م، وكذلك في العام ١٩٤٣م.

في عام ١٩١٦ م كان طراد الملحم على تواصل مع قيادة الثورة الكبرى، وجرت بينه وبين الأمير فيصل بن الحسين مراسلات تشير إلى التعاون السياسي والعسكري بينهما.

رفض العرض الفرنسي في إعلان حكومة للبدو مركزها تدمر. كان رفضه قاطعاً أعلنه خلال المؤتمر الذي عقده المندوب السامي الفرنسي "المسيو دو جوفنيل" رؤساء ومشايخ العشائر. إلى اجتماع يعقد في تدمر يشرح لهم نيّة السلطات الفرنسية بتشكيل حكومة للبادية مقرها تدمر.

كان الاجتماع في فندق زنوبيا في منتصف عام ١٩٣٢ م وكان فحوى خطاب المسيو دوجوفتيل ملغماً بإغراءات كبيرة يمكن أن يستفيد مها شيوخ العشائر من تشكيل تلك الدولة. شيخ الحسنة طراد الملحم رفض الفكرة الفرنسية من أساسها وحذا حذوه بقية الشيوخ.

(نص الكلمة التي ألقاها طراد بن فندي سعود الملحم في الشهر السادس من عام ١٩٣٢ م في فندق زنوبيا في مدينة تدمر أثناء اجتماع المندوب الفرنسي المسيو دوجوفنيل مع شيوخ وزعماء ووجهاء سورية للتفاهم حول عملية إنشاء حكومة للبادية السورية يكون مقرها تدمر:

حضرة المندوب السامي المسيو جوفنيل المحترم .

حضرة المستشار الإداري الفرنسي في حمص المحترم .

أهلي وإخوتي شيوخ وزعماء ووجهاء الشعب السوري المجيد:

باسمي طراد فندي الملحم شيخ عشائر المنابهة أشكركم جميعاً على هذه الثقة الكبيرة التي منحتموني إياها بتمثيلكم على هذه المنصة من أجل إبلاغ ممثل الحكومة الفرنسية في هذا الاجتماع بقرارنا السوري العربي الموحد والنهائي بشأن مقترحات الحكومة الفرنسية حول عملية تقسيم بلدنا سورية العربية إلى مجموعة دويلات يكون في كل دولة حكومة خاصة بها، ومن هذه الحكومات إنشاء حكومة للبادية في المدينة التاريخية تدمر.

حضرة المندوب السامي والمستشار الإداري الفرنسي في حمص:

باسمي وباسم الحضور الكرام من زعماء ووجهاء سورية العربية، نتشرف في لقائكم معنا في مدينتنا العربية تدمر ونشكركم على هذا الحس الديمقراطي الذي تعاملتم به معنا في هذا الاجتماع الهام والكبير، ولكن نأسف على عدم اتفاقنا معكم في ما طرحتم من مقترحات وأفكار، فنحن في سورية شعبا وزعماء نرفض رفضاً قاطعاً دون أية مبررات كل ما من شأنه الإساءة إلى بلدنا سورية، وخاصة مشروعكم القاضي بتقسيم سوريا إلى دويلات متعددة. السادة ممثلي حكومة الانتداب الفرنسي في بلدنا في هذا الاجتماع :

نزيدك علماً أننا لن نقبل بتجزئة بلدنا سورية العربية الموحدة إلى دويلات، حتى يقبل الطفل الرضيع بتجزئة ثدي أمه وحلمنا الكبير في بناء سورية الكبرى وحلمنا الأكبر بجلائكم عنا. هذا هو قرارنا النهائي في سورية ونرجو أن تتقبلوه منا بفائق الاحترام والتقدير".

كان يجيد القراءة والكتابة واستطاع أن يكوّن لنفسه ثقافة خاصة اكتسبها من ممارسته لمنصبه ومن مخالطة الطبقة المثقفة، كما إنه كان يجيد اللغة الفرنسية فكان يتواصل مع الشخصيات الفرنسية أيا كانت من دون مساعدة ترجمان. وبالمقابل كان الفرنسيون قلما يردون له طلباً لعلمهم مقدار تأثيره على غيره من زعماء العشائر. ومن خلال إظهار ما يؤكد تقديرهم لشخصه واحترامهم الكبير لهم كانوا يريدون استرضاء العشائر. فكانت سيارته دائماً في حصانة من التفتيش وفيها كان يمرر ما يتاح له من أسلحة .

وثمة حادثة شهيرة بشأن حمص يوم أوقف قرار الفرنسيين بقصف حمص بعدما قتل أحد أبناء هذه المدينة محافظ حمص الذي كان أقسى من المستعمرين ذاتهم في التعامل مع أبناء بلده. مارس شتى أشكال التعذيب والاضطهاد وفرض غرامات أضرت بأهل المدينة فكان أن قتلوه وغضب الفرنسيون وتقرر قصف المدينة بالمدافع والطائرات.

ذاع الخبر وبدأ أهل حمص يستعدون لمحاربة الفرنسيين بما بحوزتهم من سلاح يستطيعون الحصول عليه وبدؤوا بترحيل النساء والأطفال إلى قرى مدينتي طرابلس وحماة.

طراد الملحم توجه من فوره لدى سماعه الخبر إلى المستشار وسأله: أحق أنكم قررتم ضرب المدينة ؟ فقال المستشار: نعم إذا لم يسلم القاتل. وقال طراد الملحم: ومن هو القاتل؟ سموا لنا القاتل لنعرف من هو، وما هي غايته؟ فأجاب المستشار: "لا نعرف القاتل ودوائرنا تفتش عنه لنعرف من هو وإلى أي جهة ينسب". وبكل برود قال الشيخ طراد: "هل من الممكن أن نذهب إلى غرفة المتصرف؟ أو غرفة رئيس الديوان؟". سأل المستشار: "لماذا نذهب إلى غرف المتصرف؟". فقال الشيخ طراد: "إن غرفة المتصرف تطل على الشارع الذي يؤدي إلى القرى وإلى القطار وهناك ترى بعينك العربات التي تنقل النساء والأطفال والشيوخ إلى القرى القريبة حتى لا يبقى في المدينة إلا الرجال الذين يستطيعون محاربتكم والدفاع عن مدينتهم.. وأنه يا حضرة المستشار أقول بصراحة وبدون مواربة أقول أن عشيرتي وجميع العشائر القريبة من حمص ستأتي إلى المدينة لتعاون سكانها بالدفاع عنها وعن شركائهم فيها لأن كل بدوي له شريك في المدينة وأنا يا حضرة المستشار لا أحاول منعهم أو كبح جماحهم، ولذلك أتقدم ناصحاً بإلغاء القرار وتطمين الناس حتى يعيدوا نساءهم وأطفالهم وشيوخهم الذين أبعدوهم عن المدينة وأنتم باستطاعتكم معرفة القاتل، وإني أقدم لكم النصح وقد أعذر من أنذر".

وعلى الأثر استدعى المستشار كبار الضباط ومستشاري حماة وطرابلس فقصّ عليهم ما قاله الشيخ طراد، وكان الفرنسيون يخشونه ويحسبون له حساباً لما له من سلطان على جميع شيوخ العرب ورؤساء العشائر، لا في بادية حمص وريفها بل في سورية كلها.

واتصل الجميع ببيروت فعرضوا على المفوضية العليا تلك المعلومات واقترحوا إلغاء القرار بضرب المدينة لأن النفوس متوترة، ويخشى من احتلال الثكنة التي تقوم في منتصف المدينة مما يسبب إسقاط هيبة المدينة.

وفي صباح اليوم التالي استدعى الشيخ طراد إلى مقر المستشارية وأبلغ أن المفوضية العليا والقيادة العليا وافقت على إلغاء قرار الضرب، ويمكنه أن يطمئن الناس والعشائر، وخرج المنادي ينادي بشوارع حمص وأزقتها برفع الضرب عن المدينة وأخذت الأسر تعود مطمئنة. وراح الشعب يتحدث عن شهامة الشيخ طراد ورجولته لأنه استطاع أن يحمي المدينة من كارثة لا يعلم مداها إلا الله .

اغتيال طراد الملحم :

اغتيل طراد الملحم في دمشق وذلك عقب حادثة جرت في أروقة المجلس النيابي..

للوقوف على حقيقة ما حدث وجدت أنه من الأفضل العودة لمذكرات رجل اتجهت إليه الأنظار حالما اغتيل طراد الملحم هو أكرم الحوراني.

(مذكرات أكرم الحوراني وتحت عنوان مؤامرة لاغتيالي بسلاح العشائر :

في مطلع سنة ١٩٤٦ م افتتح المجلس النيابي دورته الاستثنائية لدرس الموزانة. وفي جلسة ١٩٤٦/١/١٠ افتتح المجلس النيابي دورته الاستثنائية لدرس الموازنة. وفي جلسة ١٩٤٦/١/١٠ قدمت الحكومة جوابها على اقتراحاتي السابقة: "جواباً على طلب نائب حماة أكرم الحوراني بشأن الوفر الحاصل من إلغاء مصلحة العشائر وتسريح جنودها وموظفيها المدنيين، إن طلب حضرة النائب الموما إليه هو سابق لأوانه لأن مصلحة العشائر لم تلغ بعد..".

قال جمال علي أديب نائب جبلة :

إن لجنة الدفاع الوطني قد أرسلت تقريرها بالموافقة على الاقتراح إلى مكتب المجلس. وطلبت من الحكومة أن تهيئ القوانين اللازمة ليجري تنفيذها في السنة القادمة. كما قال هاني السباعي نائب حمص: إن اقتراح الزميل السيد أكرم الحوراني موجود الآن لدى لجنة الموازنة، وقد بحثته أثناء درس لموازنة العشائر، كما بحثته عند درس لموازنة الدفاع الوطني، ولجنة الموازنة ستتقدم برأيها في هاتين الناحيتين معاً، وعندئذ يثار بحث قضية إلغاء مصلحة العشائر وقضية الخدمة الإجبارية، واعتقد أنه عندما يوافق المجلس على قرار اللجنة يجب على الحكومة أن تهيئ المشاريع لذلك .

فعلقت قائلاً :

إنني أطالب بإقرار الاقتراحات التي تقدمت بها والوزارة أعطت جوابها في إحدى الجلسات الماضية رافضة إلغاء مصلحة العشائر، وقد جرى نقاش طويل حول هذا الموضوع آنذاك، وفي هذه الجلسة تبعث الحكومة بجوابها على قضية الخدمة الإجبارية وهو كما سمعتموه، أما من جهتي فإنني مصرّ على إقرار الاقتراحين. ولكن بما أن الموضوع الآن متعلق بقضية الخدمة الإجبارية وقد أقرته لجنة الدفاع الوطني، فإني أقترح تلاوته في المجلس، وعندما يعطي المجلس قراره في موضوع الخدمة الإجبارية تضطر الحكومة ولجنة الموازنة آنذاك أن تتمشى حسب قرار المجلس واتجاهه .

وبالرغم من أنني أردت أن يقتصر البحث على موضوع الخدمة الإجبارية في معزل عن الاقتراح الثاني المتعلق بإلغاء مصلحة العشائر، فإن الشيخ طراد الملحم بالاتفاق مع رئيس الحكومة اتخذ ذلك مناسبة للاعتداء عليّ، فقال :

أنا أتكلم بلسان جميع العشائر فهم لا يقبلون إلا بأحد أمرين: إما أن تكون لهم دائرة معروفة حددها الدستور، وإما أن تلغى جميع القوانين المتعلقة بهم، وتطبق عليهم القوانين الحالية، وعند ذلك يرفع رؤساء العشائر المسؤولية عن أنفسهم، وفي كلامه ما فيه تهديد .

فأجبته قائلا:

أنا ما أردت إثارة هذا الموضوع، ولكن الزميل أراد حشره في هذه الجلسة حشراً، فجواب الوزارة على اقتراحي وما دار في الجلسات الماضية كان كافياً، ولكنني أعود وأقول أنني مصر على رأيي هذا حتى النهاية، ومؤمن بأن هذا الاقتراح موافق لنص الدستور، وإذا كان الزميل يتكلم باسم العشائر فيحق لي أن أتكلم باسم الأمة، لأنني بينت في اقتراحي أن بإمكان الجيش توطيد الأمن في البادية، وإن قرارات المفوض السامي أوجدت بلبلة عظيمة، وأن الاعتمادات البالغة أربعة ملايين ليرة سورية التي تنفق على مصلحة العشائر يمكن أن تعتبر وفراً في الموازنة، أما ما يختص بالشق الثاني وهو التشريع، فأنا أصرّ على ما ذكرته في الجلسات السابقة، وأعلن بأن القرارات التي أصدرها المفوض السامي لم تكن إلا طعنة في صميم القضية الوطنية، وأن فرنسا بتشريعها لم تستهدف سوى تطبيق سياسة استعمارية معينة.

وأنا عندما أطلب إلغاء هذه القرارات وإعادة النظر بأمرها لا أكون قد تعرضت لإخوتي نواب العشائر بأي سوء، وكما أنهم حريصون على مصلحة أفراد العشائر فأنا حريص مثلهم، لأنهم من أفراد هذه الأمة، وأرجو من إخوتي أن لا يثيروا العصبيات، وإنما يجب أن نبحث الموضوع بكل حرية لنصل إلى ما نريد تحقيقه بما يتلاءم مع المصلحة العامة دون الالتفات إلى شيء آخر .

وهكذا يبدو من كلمتي المتزنة، أنني حرصت فيها على أن لا أستثير نواب العشائر، ولكن الشيخ طراد الملحم أجاب :

لقد تكلم الأخ وقال: إنني حشرت هذه القضية حشراً، وأراد أن يدافع عن نظريته، وكنت أن حضرة الزميل عندما يجد أن رأيه خاطئ يقول: الرجوع إلى الحق ولا التمادي في الباطل، ولكنه الآن أراد أن يصر على رأيه وإن كان خطأ، ثم أردف وقال: إن المفوض الإفرنسي أوجد هذه القرارات التي ليست إلا ضربة في صميم الأمة، وهو يريد أن يدافع أفراد العشائر عن قرار المفوض الإفرنسي، وحاشا يا حضرة الأخ أن يدافع أفراد العشائر عن قرار المفوض السامي، ولكن هذا القرار تدافع أنت عنه في المحاكم عندما يوكلك أحد الناس .

وهذه القرارات موجودة في صميم القانون، ونحن لا ندافع عن قرارات المفوض الفرنسي، إنما نحن ندافع عن قانون خلفه آباؤنا وأجدادنا، وإننا لنفتخر بأننا ندافع عن هذا القانون الذي هو عربي كما أنك عربي، وقد يمكن أن يكون من أصل كل فرد يقول: إنه عربي حتى قبل الإسلام، وأرى أنك تلاحق مسألة العشائر، وكأن العشائر أعداء لك، وأرجوك أن تتجنب هذه القضايا ونحن لا ندافع عن قرار المفوض الفرنسي، وأطلب من نواب العشائر أن يحاكموني على هذا الكلام .

وعندما انتهى الشيخ طراد الملحم من إلقاء كلمته ظننت أن الأمر انتهى عند هذا الحد، ولم يدر بخلدي أن يهب جميع شيوخ العشائر دفعة واحدة - وكان عددهم يتجاوز الخمسة عشر نائباً - فيهجموا عليّ مصوبين مسدساتهم نحوي، فلم أتزحزح من مقعدي، وبمنتهى التحدي أفلتت من فمي كلمة لا أحب تسجيلها في هذه المذكرات، فقام النواب يحولون بينهم وبيني، كما هبّ الزائرون في شرفات المجلس، وحاول بعضهم الدخول إلى قاعة المجلس

للدفاع عني ولكن الشرطة منعتهم ، وقد أثار ثباتي وبرود أعصابي وموقفي المتحدي واللامبالي إعجاب النواب والزوار على حد سواء وعندما حاول الحاضرون إخراجي من قاعة المجلس حماية لي امتنعت عن الخروج إلا بعد أن يخرج منها جميع هؤلاء الأعراب .

وبعد قليل جمعني النواب مع نواب العشائر للمصالحة، وانتهى الأمر بتقبيل اللحى.. فاستأنف الأستاذ فارس الخوري الجلسة وتابع المجلس أعماله كأن شيئاً لم يكن .

لم أستيقظ من نومي في اليوم الثالث لحادثة البرلمان إلا متأخراً جداً، ولم أكد من تناول القهوة إلا وفاجأني بعض أبناء حي زقاق الصخر بأن الشيخ طراد الملحم قد اغتيل الآن عند خروجه من فندق أمية بساحة المرجة – الساعة ١١,٣٠ ظهراً فلم أصدق الخبر، فأكدوه لي وطلبوا مني مغادرة المنزل فوراً، وقالوا شاهدوا عدداً من البدو المسلحين يخرجون من دار أمير عشيرة الرولة نوري الشعلان القريبة من منزلي حاملين الرشاشات والقنابل والبنادق وأنهم اتجهوا إلى مديرية الشرطة وألحوا عليّ بمغادرة المنزل).

وبما أن الرواية التاريخية تحتاج إلى تدقيق وتحقيق وإذا سلمنا بما جاء في رواية أكرم الحوراني، فإنه يؤكد بكلامه حجم الخصومة الكبيرة بينه وبين نواب العشائر الذين كان يترأسهم طراد الملحم. في مسألة اغتيال طراد الملحم تغيب الوثائق وتظل الشهادات الشفاهية. المنطق التاريخي لا يسمح باتهام الحوراني مباشرة بجريمة اغتيال طراد الملحم، في حين أن الواقع والظرف السياسي لتلك المرحلة يؤكد أن غياب أحد الرجلين عن الساحة السياسية يعني تعزيز مصلحة الآخر. ومذكرات الحوراني – مابين السطور – تشي بخوفه الأكيد من طراد ونواب العشائر وخشيته سواء على حياته أو على حضوره السياسي. أضف على ذلك أن الحوراني يعترف بان شيوخ قبيلة النعيم

– الذين كانوا يعيشون حالة حرب قبلية مع الحسنة التي يقودها طراد – قد اتصلوا بالحوراني وأكدوا أنهم على استعداد لتنفيذ اغتيال الشيخ طراد الملحم. جريمة مخطط لها بغطاء خلاف عشائري.

وعن الموقع الرسمي لقبيلة الحسنة أخذت هذه القصيدة لطراد الملحم:

يالله يـــا خـــالق الكـــون بقيـــاس ... بعرش تعلـــى عالبرايـــا رهيـــي

أتجيرنا من شر ظـــالم ودســـاس ... يلي دخيلـــك ســـالم مـــا يخيـــي

الطرح يفرنسا صعيب على الناس ... ويعسر علينا قبول طرح صـــعيبي

العرب يا جوفنيل طلاب نومـــاس ... والدار ما تقبـــل ظلومـــاً غريبـــي

بسوريا تبغـــى دويـــلات وتعـــاس ... غير هواك وقـــول قـــولاً رتيبـــي

ديد الرضيع اشلون يقطع بالمواس ... واليا تقطع مـــا يجيـــه الحليبـــي

العرب ما يبنون قصراً بلا ســـاس ... مرفوض قولك من بعيد وقريبـــي

حولك شيوخاً بالمقاعيـــد جـــلاس ... هيل المبادي شمسهم مـــا تغيبـــي

وطراد بن فندي بشيرك بـــالفلاس ... أعقب ولا لك في حمانـــا نـــصيبي

حنا حماة الوطن من كـــل خنـــاس ... وال مثلكم نرميه وســـط اللهيبـــي

وحدودنا فيها المغـــاوير حـــراس ... والله من فوق الخلايـــق رقيبـــي

واليا اعتلينا فوق طوعات الفراس ... يا ويلكم مـــن رافعـــات الـــسبيبي

تدمر حصينة وما عمر قدرها خـــاس ... تختال في جـــوٍ وســـيعٍ رحيبـــي

عين المها ما صادها كـــل قنـــاص ... ومـــا راعهـــا متجبِـــر مـــستهيبي

يلقى المهانة ويضرب خماس بسداس ... مثل الحـــصيني تايـــهٍ بالـــشعيبي

جونا قبل تاتار يونـــان واجنـــاس ... وراحت قوافلهم شـــتات ونهيبـــي

مْرادنا التوحيد من قلب واحـــساس ... هذا نهـــار العيـــد عيـــدٍ رهيبـــي

ما نريد حكـــام ولا نريـــد ســـياس حنا أسياد ومـــا علينـــا حـــسيبي

من رادنا بالخير والحب لا بـــاس نجزي إكرام الناس طيبـــاً بطيبـــي

والحق مثل الشمس ما ظن ينداس وســـيوفنا لحقوقنـــا تـــستجيبي

وصلّوا على العـــدنان مـــا هـــب يشفع لنا بساعات الحساب المريبي

طراد الملحم :

واسع متفلت لا يقبل الاحتواء.. هكذا تاريخك الشخصي سيظل..

العُقيدات

(عشيرة كبيرة تعد أكبر العشائر الريفية في بلاد الشام عدداً، وأوسعها منازلاً، ومحارثاً ومزارعاً، وأبعدها في باب الوثوب والمقارعة أثراً، وهي ليست من نجار واحد، بل مؤلفة من فرق عديدة أكثرها أصلي، وبعضها ملتحق، وهي غير قديمة في وادي الفرات بل طارئة جاءت واحتلت هذا الوادي في أوائل القرن الثاني عشر الهجري فيما يظن. والعقيدات يقطنون في قراهم المنتشرة في أقضية الدير والميادين وأبي كمال على ضفتي الفرات: في اليمنى من البويطية إلى أبي كمال، وفي اليسرى من جديدة العقيدات إلى باقوز إزاء أبي كمال. ويقطنون أيضاً في ضفتي الخابور من البصيرة جنوبا إلى تل حسين وتل الشيخ حمد في شمال الصور، حيث تبدأ حدود عشيرة الجبور)[1].

العقيدات ينتسبون إلى عمرو بن معدي كرب الزبيدي، لكن ذلك غير مؤيد بسند صحيح، كما أن رجالاتهم البارزين غير متفقين على رواية واحدة في تاريخهم القديم، فقد ذكر المقدم موللر في كتابه عن أصل العقيدات ثلاث روايات ففي رواية ينسبها إلى تركي بك النجرس أحد رؤساء القبيلة: أن أصلهم من عقدة في نجد، وأنهم نزحوا من نجد قبل خمسة قرون وجاؤوا واستقروا بين حلب وحماة، ودخلوا تحت سيادة الموالي، ودفعوا لهم الخوّة، ثم قبل قرنين حدث نزاع بين الموالي والعقيدات بشأن فرس كان أمير الموالي

(١) أحمد وصفي زكريا – عشائر بلاد الشام، ص ٥٧١.

يرغب في أخذها منهم، فقام ٣٠٠ بيت منهم، ونزح إلى الزور في أنحاء الميادين، وكان ينزل هذه الأنحاء عشيرة الجبور وحدها في مشيخة محمد أمين الملحم جدّ مسلط باشا الصالح، وكان هذا يقطن في السويدية تجاه العشارة، ونشبت معارك استظهر فيها العقيدات ودحروا الجبور إلى وادي الخابور، فيما بقي قسم من العقيدات في منطقة الموالي "حمص وحماة".

والرئاسة العليا على العقيدات في بيت الهفل، وأكبر سيخ يمثل العقيدات في مؤتمرات العشائر هو الشيخ جدعان الهفل.

وللعقيدات وقائع وحروب كثيرة مع العشائر على الأخص شمر والعمارات، كما لها وقائع كثيرة مع عشائر الدليم وطي وقيس ومع بعضها البعض .

وكان لهم وقعة في عام ١٩٤٧ مع قبيلة الجبور جراء خلاف على المراعي فقتل وجرح عدد من الفريقين ولولا تدخل المصفحات والطائرات السورية لتفاقم الخطب[١].

(١) المرجع السابق: ص ٥٧٦.

رمضان باشا الشلاش

روبـن هـود..

«إن لبريطانية العظمى عدوين، في الشرق لينين ورمضان الشلاش في الجنوب»[١]

«رمضان الشلاش أصبح نوعاً من الروبن هود في عصيانه وثورته»[٢]

فيما آلهة "الأنا" تنساب بتلقائية على رمال تدرك حنكة السراب التي تنتهي بتتويج المَرَدَة.. عرفت البادية السورية "رمضان باشا الشلاش"، شيخ الأبو سرايا، من فرق العقيدات القاطنة في قضاء دير الزور. وينقسم الأبو سرايا إلى عدة أفخاذ: الأبو عزام والأبو عز الدين والأبو شعيب والأبو حمزة والعفيشات والأبو مطر والأبو نياب والموسى. والمشيخة في فخذ الذياب ونخوتهم "أخوة صبحة".

---

(١) كلمة ونستون تشرشل في لندن عام ١٩٢٠- جريدة التايمز اللندنية.

(٢) د. ميشيل بروفنس، الثورة السورية الكبرى، مطبوعات جامعة تكساس، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥ ص١١٦ "ترجمة عن الانكليزية" ندوة أقامتها جمعية العاديات فرع الميادين في ١٨ نيسان ٢٠٠٩ بعنوان "تكريماً للمجاهد رمضان الشلاش" – إعداد: كمال الشوفاني.

ولد رمضان بن شلاش بن عبد الله السليمان في قرية الشميطية الواقعة على إحدى ضفاف الفرات، غربي دير الزور في عام ١٨٨٢م من عائلة فراتية ترجع بنسبها إلى عشيرة البوسرايا التي ترجع بنسبها إلى قبيلة العقيدات من زبيد. نشأ رمضان في هذه القرية وترعرع في كنف والده شيخ عشيرة البوسرايا وبدأ تعلمه في الكتاتيب. ولدى بلوغه العاشرة من عمره ذهب إلى استنبول للدراسة في مدرسة العشائر العربية التي افتتحها السلطان عبد الحميد الثاني لاحتواء أبناء الشيوخ وتثقيفهم بالفكر العثماني لضمان عدم خروجهم عن طاعة السلطان - لكن الزمن أثبت عكس ذلك تماماً -.

تخرج رمضان من مدرسة العشائر سنة ١٨٩٧م ليلتحق بعدها بالمدرسة الحربية، وتخرج منها برتبة ملازم خيال. تم تعيينه في حلب برتبة ملازم بلواء الخيالة. وعين بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ من قبل ياسين باشا الهاشمي قائداً لسرية الجمالة في الجولان، ثم في عام ١٩١٦ عين قائداً للسرية الخامسة في لواء الهجانة في المدينة المنورة، ودعيَّ بعدها من قبل الأمير زيد للانضمام إلى الجيش العربي، حيث التحق بصفوفه وبعد الثورة العربية الكبرى عين حاكماً عسكرياً على الرقة والخابور والفرات.

(عدونا في الشرق اثنان: أحدهما هو لينين في الشمال والآخر هو رمضان شلاش في الجنوب) الكلام لونستن تشرشل رئيس الوزراء البريطاني آنذاك حيث قدم رمضان شلاش كعدو أول في الشرق برمته.

بدأ رمضان شلاش بعد سيطرة الإنكليز على دير الزور بمكاتبة رؤساء العشائر في المنطقة تمهيداً لتحرير دير الزور واستطاع تكوين جيش من ٥٠٠ رجل بعضاً منهم على ظهور الخيل والأقل على الإبل والزحف باتجاه الدير في كانون الأول ١٩١٩ وتزايد جيشه ليبلغ ثلاثة آلاف فارس وما أن وصل دير الزور بدأت قواته تهاجم المواقع العسكرية لمدة ثماني ساعات

استطاع فيها الثوار إسكات النيران وأجبروا القوات البريطانية على الاستسلام ودخلوا دائرة الحاكم الإنكليزي وهناك كانوا على مواجهة مباشرة الكولونيل "ليشمان " - واستولوا على المال ونسفوا خزان البترول وفتحوا السجون، ثم في اليوم التالي هاجمت قوات رمضان مقر قيادة الكابتن (جامير) الذين أخذوا رهائن مهدداً الإنكليز بإعدامهم إذا ما قاموا بأي عمل يهدد سلامة دير الزور ثم توجه إلى البوكمال حيث اصطدم بحرب معهم، فرّ الإنكليز على إثرها هرباً إلى قضاء عانة في العراق، أصر رمضان متحدياً أوامر الملك فيصل على وجوب انسحاب البريطانيين وأغار على البوكمال بعد أن سيطر عليها الإنكليز ثانية وقد كان لهذه الأعمال البطولية نتائج كبيرة إذ أنها أعادت دير الزور إلى الحكومة العربية وقد أظهرت الحكومة الفيصلية معارضتها لثورة شلاش حيث كانت تقوم بمفاوضات رسمية مع الحلفاء لذلك فقد قامت بعزل رمضان شلاش وعينت مكانه "مولود مخلص" .

ثورة العقيدات

ثورة العقيدات التي قادها رمضان الشلاش واستمرت ما يقارب الاثنتين وعشرين شهراً، ليست منسية سواء في المصادر العربية أو الأجنبية، لكنها منسية أو "مُغيبة" في المناهج الدراسية المحلية ؟ المصادر الأجنبية تسلط الضوء على الأهمية التي أولاها القادة الإنكليز لثورة دير الزور حيث تقارير كثيرة تؤكد أهمية تلك الثورة كونها مقدمة لثورة العراق بشكل عام أهمية بالغة. وكان لها الدور الحاسم في منع سلطات الانتداب من إلحاق لواء دير الزور بالعراق؟!

ملخص الأحداث بروايات إنكليزية :

هناك أكثر من مصدر إنكليزي تناول الحدث بالتفاصيل يذكرها أسعد الفارس في كتابه المذكور: أرنولد ويلسون في كتاب "بلاد ما بين النهرين" والميجر براي في كتاب "بطل من الجزيرة العربية" وونستون في كتاب "ليشمان آمر الصحراء" غير أن أهم وأدق الذين كتبوا في هذا المجال هو ما كتبته "المس بيل" في كتاب "فصول من تاريخ العراق القريب" ويمكن إيجازه على النحو التالي:

(في شباط وتموز عام ١٩١٩ أقنع رمضان الشلاش وكيل جمعية العهد قبائل الدير بالموالاة، وتلقى وثائق يطلبون فيها تابعية الحكومة العربية. وكان رمضان نفسه في الأصل مختارا لإحدى القبائل المحلية، وهي البوسرايا التي يحترف أفرادها الزراعة وتربية الأغنام في شمال الدير وجنوبه، ثم صار ضابطا في الجيش التركي، هرب من المدينة فالتحق بالشريف. ولم تكن دعاية جمعية العهد مقتصرة على الدير وحدها، فقد كانت تجري اتصالات بين العراقيين الموجودين في سورية وبين أقاربهم وأصدقائهم في العراق، تطلب من العراقيين الانضمام إلى سورية والمطالبة بالاستقلال التام .

أرسلت الأموال من سورية لمساعدة العراقيين في نشر هذه الدعوة. وقد أقنعت إدارة الدير السلطات المدنية في العراق بأن الحدود يجب أن تعدل، بحيث تشمل متصرفية الدير بكاملها: المدينة والقبائل المحيطة بها، فتقسيم الجماعات العشائرية تقسيماً اعتباطياً سوف يؤدي لإثارة المشاكل وسوء التفاهم. وكانت الاعتبارات العسكرية تستدعي عدم إلحاق دير الزور وقبائلها بالعراق، لأن الجيش البريطاني لا يمكنه أن يحتفظ بمنطقة بعيدة مثل دير الزور. وفي صيف ١٩١٩ اقترحت حكومة صاحبة الجلالة وضع حدود

مؤقتة تقطع الفرات عند مصب نهر الخابور على بعد عدة أميال جنوبي الدير، وعلى امتداد هذا الرافد، غير أن ذلك لا يتفق وواقع الحال، لأن القبيلة نفسها هناك تشغل جانبي الخابور وكان من الضروري أن توضع القبيلة كلها تحت سيطرة دولة منتدبة واحدة. ومع هذا تقرر في أيلول ١٩١٩ بين بريطانيا العظمى وفرنسا إبقاء الخابور حدودا مؤقتة، وكان الأمير فيصل يومذاك قد ذهب إلى أوروبا لحضور بعض المؤتمرات، لكننا غير متأكدين فيما إذا كان على علم بطبيعة وحقيقة القرار المتخذ، مع أنه كان يعلم بلا شك بنوايا الحكومة الحليفة في إخراج دير الزور من حدود الدولة العراقية. والظاهر أن الانطباع العام في سورية كان ينطوي على أن بريطانيا العظمى سوف تخلي جميع المتصرفية التي كانت حدودها الجنوبية تنتهي بالقائم، وهي الحدود الإدارية التركية القديمة، أو في جنوب عانة في النقطة التي اعترف بها الأتراك اعترافاً مؤقتاً. وكان من الأهمية بمكان أنه إذا تم الجلاء فإن السلطة التي ستخلفنا، سواء أكانت عربية أو فرنسية، يجب أن تجري معها دور تسليم رسمي لنتحاشى الخطأ وهيجان العشائر. فبالنظر لعدم وجود أي بيان رسمي عن مستقبل الدير كانت الجهات المختلفة تشعر بعدم اطمئنان خطير، ولم يقل ذلك الشعور بلا ريب عندما حدث في الرابع من تشرين الثاني، وبعد جلاء القوات البريطانية من سورية مباشرة، فقد علم وكيل الحاكم السياسي أن قائمقاماً تركيا قد وصل إلى الحسكة الكائنة على الخابور في شمالي الدير، وشاعت في الوقت نفسه إشاعات بين القبائل تعلن عن عودة الأتراك قريبا إلى المنطقة. فخف الكابتن جامير إلى الحسكة للتباحث مع القائمقام المذكور، ثم ذهب بناء على اقتراح القائمقام إلى رأس العين للاتصال بالقائد التركي في ماردين تلفونيا طالبا منه بيان أسباب الحركة الأخيرة فكان جواب القائد أنه علم بأننا كنا قد أخلينا الدير، وبما أن الأمر كان بخلاف ذلك

فإنه سوف يستدعي القائمقام من هناك. وفي ١٩ تشرين الثاني تسلمنا في بغداد برقية من المندوب السامي في القاهرة تفيد بأن رمضان الشلاش ترك حلب مزودا بالتعليمات في السير إلى دير الزور. وقد وصل الرقة في أوائل كانون الأول وشرع ينشط بين القبائل بصورة فعالة، ويدعي بأنه حكم الفرات والخابور. ومن سوء الحظ أن توجيهات حكومة صاحب الجلالة التي كانت في طريقها إلينا لم تصل بعد. وفي ١٠ كانون الأول سمع الكابتن جامير معاون الحاكم السياسي إشاعة تفيد بأن قوة عربية كانت تزحف من الرقة لتهاجم دير الزور، فاستدعى ضابط السيارات المصفحة وذهبا بإحدى السيارات للاستطلاع في طريق الرقة فلم يجد أثرا لأية حركة غير اعتيادية، ولكن عند عودتهما أطلقت عليهما العشائر الرصاص من كمين نصب لهما في الطريق، غير أنهما عادا إلى الدير بعد شق الأنفس. وحتى في ذلك الوقت لم يكن الكابتن جامير يعتقد أن العرب كانوا ينوون الإغارة على دير الزور بصورة جدية، لكنه أبرق إلى بغداد يخبر بوجود قلاقل خطيرة، وأوقف رئيس البلدية الذي ارتاب من تواطئه، ثم اتخذ كل ما يمكنه من التدابير للمحافظة على الأمن في البلدة، واحتمى مع الشبانة العرب بالثكنة العسكرية. وفي الصباح الباكر من يوم ١١ كانون الأول دخلت القبائل دير الزور من الجنوب، فنهبت مع سكان البلدة المستشفى والكنيسة، ومسجدا واحدا أو مسجدين، ودائرة الحاكم السياسي حيث كسرت الخزينة وفتحت محتوياتها. وقد نُسف مخزن البترول فأدى إلى قتل حوالي تسعين شخصا من المهاجمين، ثم أطلق سراح جميع المساجين، كما أطلقت النار على سيارة مصفحة ذهبت للاستطلاع في البلدة فأُعطبت بشدة، وفي نهاية الصباح فتحت النار على الثكنة، فردت عليهم الرشاشات التي كانت قد نصبت فوق السطح، لكنها سرعان ما أسكتتها نيران العدو. وبعد ذلك بمدة وجيزة دعي الكابتن جامير

للنزول إلى البلدة للتفاوض، وكان في وضع محرج لأنه لم يكن عنده شيء من الماء ولا من الطعام في القلعة لمقاومة الحصار، ولذلك وجد من الأحسن أن ينصاع للأمر ويلبي الطلب، فأخذ معه معاونه الشخصي العربي وذهب إلى بيت رئيس البلدية حيث وجد وجوه البلد البارزين، فلاحظ رغبتهم بعقد هدنة معه، وكان من الواضح عدم قدرتهم للسيطرة على العشائر التي دخلت المدينة، ولكي يضع حدا لإطلاق النار الكثيف الذي كان مستمرا سار الكابتن جامير مع رئيس البلدة ليظهرا بأنه لم تكن هناك حرب بين البريطانيين والعرب. وعند عودته إلى بيت رئيس البلدية قابل الشيوخ الذين قادوا الثورة، فوجدهم في حالة هياج وفي عداء شديد مغعم بالتعصب. كانوا يريدون أن يقتلوا الضباط البريطانيين مع موظفيهم، وكادوا أن يفعلوا ذلك لولا أن ظهرت في السماء ولحسن الحظ طائرتان بريطانيتان كانتا قادمتين من الموصل فأخذتا تصليان البلدة من رشاشاتهما، فبدّل الشيوخ لهجتهم في الحال وطلبوا من الكابتن جامبر، أن يوقف القصف. وعندما عادت الطائرتان عقدوا هدنة لمدة أربع وعشرين ساعة. وصل رمضان الشلاش إلى دير الزور بعد الظهر وطلب لتوه حضور الكابتن جامبر، فأبرز عدة كتب قال: إن شيوخ دير الزور كانوا قد كتبوها له يطلبون فيها منه أن يتسلم المنطقة بالنيابة عن الحكومة العربية. وأضاف يقول يجب على الإنكليز أن يغادروا البلدة الآن مثل ما طُلب إليهم أن يدخلوها في كانون الأول عام ١٩١٨ للمحافظة على الأمن والسلم فيها. فرد عليه الكابتن جامبر بأنه لم يتلق تعليمات بإخلاء دير الزور، وبما أنه غير قادر على المقاومة فهو يود تركها إذا ما تعهد رمضان الشلاش بالمحافظة على الأمن وبعدم مس الموظفين العرب الذين خدموا الإدارة البريطانية أو المسيحيين بسوء، لأن الدير كان فيه عدد من اللاجئين الأرمن، وكان قلقاً على مصيرهم. وافق رمضان الشلاش على هذه الشروط، لكنه غير

رأيه في الليل وطلب من الكابتن جامير أن يضمن له بعد وصوله سالما إلى الخطوط البريطانية أن لا تهاجم القوات البريطانية الدير من البر أو الجو. غير أن الكابتن لم يكن بوسعه أن يعطي مثل هذا الوعد، لكنه وافق على أن يلفت نظر إحدى الطيارات التي كانت محلقة في الجو ويقنع الطيار بالهبوط إلى الأرض، ففعل ذلك خلال النهار وأرسل رسالة إلى السلطات البريطانية شرح فيها أن البريطانيين في الدير أُخذوا رهينة في مقابل سلامة البلدة..).

ردة فعل البريطانيين كانت عنيفة بحيث هددت الأمير فيصل بن الحسين والضباط الذين كانوا يقودون الجيش العربي بقطع كافة الصلات والمعونات التي كانت تقدمها لهم. وكان الأمير فيصل آنذاك في باريس حين وصله ما فعله رمضان الشلاش فأبرق إلى أخيه زيد في دمشق ليستنكر أعمال رمضان الشلاش وهذا ما حدث بالفعل. فقامت الطائرات البريطانية بتاريخ ٢٢ كانون الأول عام ١٩١٩ بإلقاء منشورات فوق مدن وبلدات دير الزور فيها استنكار فيصل لما حصل وطلبا من القائد العام ومن فيصل يرجوان فيه رمضان الشلاش بأن يرسل الضباط البريطانيين ومن كان معهم إلى البوكمال سالمين.

كان الإنكليز خلال ذلك الوقت قد انسحبوا من المبادين والبوكمال بعد أن وصلتهم الأخبار بأن رمضان الشلاش يزحف لاحتلال المنطقة، بالوقت الذي تساقطت فيه منشورات الإنكليز التي كانت تهدد بقصف الدير إذا لم يتم إطلاق سراح جامبر ومن معه في خلال ٤٨ ساعة، وخوفا من تدمير البلدة تم إطلاق سراح جامير.

لكن رمضان الشلاش واصل تحرشه بالإنكليز ومهاجمتهم في مواقع متفرقة وبكل الوسائل التي أتيحت له فحرض العشائر على قطع الطرق وإشاعة الفوضى في منطقة النفوذ البريطاني حول عانة والبوكمال.

وبالنتيجة أن الحكومة الإنكليزية تخلت عن لواء دير الزور حتى مصب نهر الخابور. لكن قبيلة العقيدات بقيادة رمضان الشلاش رفضت جعل الخابور الحد الفاصل بين سورية والعراق.

وعلى أثر تلك الأحداث اضطرت حكومة دمشق إلى عزل رمضان الشلاش عن إدارة اللواء وعينت مولود مخلص باشا في مكانه .والذي سار على نفس نهمج رمضان الشلاش في تحريض العشائر ومراسلة شيوخهم لاستفزاز هممهم. وبفضل التحريض السياسي الذي كان يتقنه رمضان الشلاش تدفق الضباط العراقيون إلى دير الزور التي تحولت إلى منطقة عمليات[١].

رمضان باشا الشلاش في جبل العرب

اندلعت الثورة السورية الكبرى في تموز من عام ١٩٢٥ بقيادة سلطان باشا الأطرش، وكان رمضان الشلاش مقيما في شرق الأردن فهب إلى جبل العرب لمقابلة سلطان باشا لمشاركة أبناء وطنه القتال ضد المستعمر الفرنسي. يقول سلطان الأطرش في مذكراته: (استقبلنا في غضون شهر أيلول عام ١٩٢٥ الضابط العربي رمضان شلاش، الذي ينتمي إلى إحدى عشائر منطقة دير الزور، وكان قادما من شرق الأردن ومعه نفر من الفرسان. ونزولا عند رغبته، فقد أنطنا به مهمة إشعال نار الثورة في بادية تدمر، وتعهد لنا بأن يكون تعاونه وثيقا وفعالا مع قادة المجاهدين في القلمون والغوطة) [٢] .

وبعد ذلك بقليل سجل رمضان الشلاش عدة انتصارات في محيط دمشق، أولها كان حين نفذ هجوما ناجحا مع رفاقة الثوار على ثكنة عسكرية للفرنسيين حيث غنم الثوار الخيل والأسلاب وبعد انسحاب الثوار من دوما

---

(١) يمكن مراجعة كتاب "الكولونيل ليشمان والدرب الطويل إلى بغداد"، أسعد الفارس، للوقوف على تفاصيل حروب العقيدات بقيادة رمضان الشلاش مع الاستعمار في النصف الأول من القرن العشرين. تحديداً الفصل الخامس عشر.

(٢) مذكرات سلطان باشا الأطرش، بدون دار نشر - بدون تاريخ، ص٢٣٣-٢٣٤.

والمليحة التقوا جميعا بقرية الهيجانة حيث تقرر زحف رمضان بسبعين فارسا ومهاجمة قوة الهجانة الفرنسية الموجودة في القرية، فدارت معركة حامية لمدة ساعات كان النصر فيها حليف الثوار فاستولوا على المخافر وما فيها من سلاح وعتاد وافر مع ثلاثة رشاشات و٨٠ ذلولاً "جملاً" وعادوا أدراجهم إلى حرّان العواميد .

بعد تلك الانتصارات المتواصلة لرمضان الشلاش توافدت عليه الجموع وبلغت قواه ثلاثمائة من الفرسان وثمانمائة من المشاة، فزحف فيها لإثارة قرى القلمون مثل جيرود والرحيبة والقطيفة والنبك. وبدأ كل من رمضان الشلاش وجمعة سوسق يكنيان نفسيهما "بقرار من سلطان الأطرش" قائدين لوحدة قتالية في الجيش الوطني. وجاء في كتاب الدكتور ميشيل بروفنس أن هذا أثار حفيظة الفرنسيين خوفا من أن تجذب هذه المناصب الوطنيين الشباب ومعارضي الوجود الأجنبي من كافة الطبقات[١]. ويضيف الدكتور بروفنس : (لقد جمعت استخبارات الانتداب وحفظت رسائل شلاش. لقد كتب شلاش يومياً تقريباً إلى مخاتير قرى مختلفة.. ناشد فيها شلاش القرى بصيغة وطنية تارة ودينية تارة أخرى، وأحياناً بصيغة قبلية. وعندما كتب إلى الملاّك الكبار كان يظهر التهديد بالعنف إن لم يلبوا النداء). ويورد بروفنس عدة نماذج محفوظة من تلك الرسائل.

على أثر خلاف كبير وقع بين الشلاش وكل من حسن الخراط ونسيب البكري، انسحب رمضان الشلاش من ريف دمشق. لا تُفهم أسباب ذلك الخلاف إلا بما يلمّح إليه الدكتور بروفنس حيث يقول: (رمضان الشلاش

---

(١) د. ميشيل بروفنس، الثورة السورية الكبرى، مطبوعات جامعة تكساس، الطبعة الأولى ٢٠٠٥، ص١١٦ "ترجمة عن الانكليزية" ندوة أقامتها جمعية العاديات فرع الميادين في ١٨ نيسان ٢٠٠٩ بعنوان "تكريما للمجاهد رمضان الشلاش - إعداد: كمال الشوفاني.

أصبح نوعا من الروبن هود في عصيانه وثورته، لقد جمع بين الوطنية الناشئة والقومية، يرافق ذلك مزيجا من العدالة الاجتماعية، الحماسة الدينية والصراع الطبقي. هاجم نسيب البكري شلاش لفرضه ضرائب لصالح الثورة، لكن الاستخبارات الفرنسية تظهر أن هذه الضرائب فرضت على الوجهاء وكبار الملاك، ولم تفرض على المزارعين والفقراء)[١] .

آخر المطاف:

تلك الكاريزما "الروبن هودية" التي رآها المؤرخ الغربي يبدو أنها لم تكن في صالح رمضان الشلاش، حيث أثرّ انقلاب رفيقيه عليه "حسن الخراط ونسيب البكري" فانعكس ما فعلاه بحقه بعد ما حاولا ترويجه بشأن الضرائب المالية التي فرضها الشلاش على بعض الملاك الكبار، على حماسه وإيمانه برفاق السلاح، فتوجه إلى زبدين محاولا لم شمل قواته فأرسل كتبا إلى عدد من قادة الثورة لملاقاته هناك، ولم يكن اللقاء كما يجب، فقد حصل خلاف بينه وبين بعض القادة.. بعدها اتخذ الشلاش من بلدة قارة مقرا له ومن ثم توجه إلى جهات حمص وحماة لإثارة العشائر هناك وتوسيع نطاق ثورته، وبينما كان يتحرك في تلك المنطقة علم الفرنسيون بوجوده بجوار السلمية، حيث حاصروه وأحكموا عليه الطوق وألقوا القبض عليه ونقلوه إلى بيروت، ووضعوه تحت الإقامة الجبرية. وذلك في أواخر كانون الثاني ١٩٢٦ وأبقت فرنسا على رمضان الشلاش في بيروت حتى صدور العفو عن الثوار عام ١٩٣٦ حيث عاد إلى دير الزور .

وفي عام ١٩٤١ قتل الفرنسيون ابن عمته الشيخ كسار الصياح، فأعلن رمضان الشلاش الثورة في منطقة البصيرة في دير الزور وثار معه خمسة

---

(١) المصدر السابق: ص ١٣٤.

عشر ألف فارس، واستمرت هذه الثورة زهاء شهر بعد أن شفي غليله من الفرنسيين، فباغتوه وقبضوا عليه وسيق مرة ثانية إلى بيروت وفرضت عليه الإقامة الجبرية حتى استقلال سورية عام ١٩٤٦ فعاد إلى دير الزور. وبقي رمضان باشا الشلاش في دير الزور حتى عام ١٩٦١ وقد شارف على الثمانين من عمره عندما قصد دمشق لإجراء عملية جراحية وبعد خمسين يوما من إجرائها وافته المنية ودفن في مقبرة ذي الكفل بوصية منه وذلك في ٢١ آب ١٩٦١ .

مشرف الدندل

(إذا كانت قبيلة ضعيفة كالعقيدات التي لا تتمتع بشهرة حربية كبيرة استطاعت أن تطرد الإنكليز من دير الزور، فكم يكون من السهل إذن على عشائر الفرات الأوسط التي اشتهرت بقوة الشكيمة أن تقوم بالعمل نفسه؟!)

الجنرال هالدين القائد العام للجيش البريطاني في العراق[1]

"الدندل" عائلة قدمت عدداً من أهم رجالاتها في سبيل تحرير وادي الفرات، فعندما غزا الإنكليز لواء دير الزور عام ١٩١٨ م كان عبد الدندل أول شهيد من قبيلة العقيدات من أجل تحرير بلادها وكان هذا الرجل متدينا ومحبوبا من أهله، أما الشيخ مشرف الدندل فكان مجاهداً ومسعر حرب طوال حياته .وبعد استشهاد أخيه عبد بن محمد الدندل تحول مشرف الدندل إلى محارب وخصم عنيد للإنكليز أيام الثورة وقد أقسم ليثأر منهم، ورفض كل الوساطات لوقف القتال، وبر بقسمه عندما ترك جثث وضباط الانكليز تتناثر في سهول وروابي الفرات. وعلى الرغم من أن ليشمان كان قد هاجم بجيشه قرية "الغبرة" مقر الشيخ مشرف وبطش وقتل، فقد بقي مشرف يطاردهم ومعه عشائر البوكمال طوال عام ونصف من عمر الثورة من البوكمال حتى مدينة عانة.

---

(١) كتاب الكولونيل ليشمان والدرب الطويل إلى بغداد - سعد الفارس ص١٩٣.

أقر ليشمان في واحدة من رسائله المرسلة إلى قيادته في العراق باندحاره في البوكمال[١] (.. وصمدوا أمامنا في قتال عددنا فيه ستين من قتلاهم على وجه البسيطة سوف أمكث هنا إلى أن أمسك بهم مسك اليد، وإذ ذاك سأعود إلى الرمادي. وأتجرأ لأقول لكم بأنكم لابد أن تدركوا في ذات الوقت الذي يصلكم هذا الوصف فيه، بأننا لسنا نعيش في وقت هيّن هنا، فلماذا نود أن نحتفظ بهذا الجزء من البلد الذي دحرني؟) .

ذكر مزهر الفرعون في كتابه عن ثورة العشرين[٢] إن جمعية العهد كانت قد اتصلت بالشيخ مشرف الدندل، وكسبته صديقاً للجمعية على الرغم من أنه كان أميّاً لا يقرأ ولا يكتب، ولهذا دعم مشرف الدندل رمضان الشلاش في ثورته وهجومه على دير الزور في كانون الأول عام ١٩١٩، فبالإضافة إلى الدوافع الوطنية، كان دعمه لرمضان الشلاش ووقوفه إلى جانبه كضابط من أبناء العقيدات، وكزعيم وطني يريد تحرير أرضه من الاحتلال الأجنبي.

بدأت العقيدات في قطع طرق الإمداد عن الجيش البريطاني ما بين عانة والصالحية، والهجوم على مواقع الجيش البريطاني في مدينة البوكمال نفسها في ١١ كانون الثاني عام ١٩٢٠ وفي شباط من العام نفسه كانت معركة الثأر الكبيرة في سهل المجرود، فقد خطط الحسون من البوكمال لمعركة فاصلة عندما تصدوا لكتائب الجيش البريطاني التي انطلقت لاستقبال بطارية المدافع التي كانت قادمة من عانة، وقاموا بقتل حوالي ١٢٠ جنديا بريطانيا بينهم بعض الضباط[٣].

---

(١) ليشمان، ص ٢١٠.

(٢) فريق مزهر الفرعون "الحقائق الناصعة" بغداد ١٩٥٢.

(٣) للاطلاع على تفاصيل معارك العقيدات مع الانكليز، مراجعة كتاب الكولونيل ليشمان لأسعد الفارس. حيث لا يتسع المجال أكثر، لذكر المزيد عن تلك المعارك البطولية =

وكان لمشرف الدندل دور كبير في ادارتها والتخطيط لها. وبعد تحرير دير الزور من الانكليز طرحت القيادة البريطانية أن يكون الحد بين العراق وسورية في هذه المنطقة عند مصب نهر الخابور، وهذا يعني فصل قبيلة العقيدات في دولتين، لكن رمضان الشلاش ومعه شيوخ العقيدات رفضوا هذا المشروع -كما تقدم ذكره- وقاوموه بشدة، فقام مشرف الدندل ومعه عشائر البوكمال بمواصلة القتال في منطقة البوكمال التي بقيت محتلة وطالبوا بنقل الحدود عند بلدة القائم المجاورة وهي الحد الفاصل بين ديار العقيدات وقبيلة الدليم المجاورة، وذلك بدعم وتوجيه من رمضان الشلاش نفسه، ولم يتوقف القتال إلا بعد مؤتمر العشارة حيث أجبر الانكليز في منطقة البوكمال يوماً أسود، فقد أفادت المصادر بأن مشرف الدندل كان قد حشد عشائر البوكمال لمطاردة الجيش البريطاني المنسحب ومنعه من نقل أسلحته ومدرعاته واعترف ليشمان بمرارة ذلك اليوم وشدة وطأته، وأنه طلع عشرات الطلعات بالطيران الحربي لوقف المطاردة، لكنهم لم يسلموا من القتل حتى وصلت فلول ذلك الجيش إلى مدينة عانة.

= التي شنها زعماء البدو في تلك المنطقة والتي تثير الدهشة لدى الاطلاع على تفاصيل مواجهة غير عادلة بين جيش مستعمر مدجج بالأسلحة وفرسان البدو الذين حاربوا الجيش بأسلحة غنموها منه ؟ يمكن اعتبار أن البحث المدعوم بالمادة التاريخية اللازمة لتوثيق الشيخ مشرف الدندل قدمه بضمير خالص الباحث والمترجم أسعد الفارس وذلك في كتابه الذي تقدم ذكره "الكولونيل ليشمان والدرب الطويل إلى بغداد" معتمداً الدقة والموضوعية في تثبيت بعض المعلومات والحقائق التي تُقال لأول مرة حول حركة المقاومة في وادي الفرات سواء على الجانب العراقي أو الجانب السوري.

الفدْعَــان

(الفدعان عشيرة عنزية من ضنأ بشر، وهي من عشائر عنزة الكبيرة العدد الجليلة القدر، المنيعة الجانب، البعيدة المنتجع، قال عنها البسام المتوفى سنة ١٢٤٦ هجري في كتابه الدرر المفاخر " ومنهم من قبائل حلب، الفدعان من عنزة، ذوي الوعود المنجزة، والهبات المبرزة، منهم آل غبين، والخرصة، والولد، وآل مهيد، وكل قبيلة من هؤلاء ألف سقماني وألف خيال)[١].

وقد اختلفت الأقوال في زمن قدوم الفدعان من نجد إلى بادية الشام، فمن قائل أنهم جاؤوا بعد الأحسنة والولد علي في القرن الثالث عشر، هم والأسبعة والعمارات، وهذا القول يستنتجه أحمد وصفي زكريا من تاريخ حيدر الشهابي، وهو المرجع الوحيد، لوقائع بلاد الشام خلال القرنين المذكورين، فقد نقل هذا في أحداث سنة ١٨١٤ م أن جموعا عظيمة من الفدعان والأسبعة والعمارات، وأمثالها من عشائر عنزة قدمت من نجد هربا من الجدب والضيق، وانتشرت في شرقي العاصي في براري حماة والمعرة، وأن والي دمشق سليمان باشا السلحدار خشي وقتئذ أن يستبيحوا حمى المعمور، فساق عليهم جيشا كبيرا استعان فيه بخصوم الفدعان القبليين، لكن ذلك لم يرد الفدعان عن اجتياح المنطقة. وتاريخ هذه القبيلة حافل بنزاعات دموية خاضتها القبيلة ضد قبيلة شمّر وقبائل أخرى من العنزة كالرولة والحسنة والعمارات .

---

(١) عشائر الشام: ص ٥٩٣ .

جدعان بن مهيد

لعل جدعان بن مهيد من أكثر شخصيات البادية الشامية خبثاُ ودهاءاً ومكراً....

ينحدر المهيد من أصول تتمتع بقدر عظيم من الاحترام. يدينون بسلطتهم إلى جدعان بن مهيد الذي انتزع في خمسينيات القرن التاسع عشر المشيخة من "جاعد بن حريميس". أمضى جدعان حياته في حروب متواصلة. فقد كان قائداً حربياً بالولادة، أظهر حنكة خاصة خلال هجوم مباغت شنه على الأتراك عام ١٨٥٧ م، ومن ثم اجتاز بقبيلته وقطعانها الفرات وأنزل ضرراً شديداً بالعدو .

بلغ جدعان أوج قوته في سبعينيات القرن، حين صار قائمقام العربان في حلب، ونال لقب البيك، المرتبط بهذا المنصب، وتلقى قرى وأراضي عديدة في جبل شبيث من الحكومة.

وصفي ذكره بقوله[١]: (وخاصمت الفدعان العمارات أيضاً بسبب النزاع على مراعي القعرة ومنازلها، وخاصمت أيضاً الرولة وكان عقيد الفدعان وقتئذ فارسهم المغوار وداهيتهم في الحرب والإرادة جدعان بن مهيد.. وقد كان جدعان طائر الصيت والوقائع، وكان بدء أمره أنه لجأ مرة إلى شمر عقيب حادثة قتل، ولما عاد إلى عشيرته رأى أن أحد أبناء عمه يود زواج امرأة كان هو يريدها لنفسه، فبارزه لأجلها وقتله، ومن ثم ذاعت

(١) عشائر الشام: ص ٥٩٥.

شهرته بالفروسية والبسالة، وصار عقيد الحرب على الفدعان كلها، ثم على الأسبعة أيضاً حينما كان في نزاع واقتتال مع الرولة وكان جدعان ذا رأي صائب في المجالس، وتدبير نافذ في السياسة، ومضاء عزم في المعارك وقد حملته هذه المواهب على أن يخاصم الدولة العثمانية ويقاتل جندها مراراً، حتى انه في سنة ١٢٨٧ هجرية هزم لها جنداً كبيراً في أنحاء بالس "مسكنة" ساقه والي حلب درويش باشا، فرأت الدولة من سبل الإخضاع والإرضاء أن تقطع جدعاناً عشرين قرية في أنحاء جبل الشبيث، جنوبي بحيرة الجبول، علّه يستقر هو وعشيرته فيها، ويتحضر ويكفيها شره، لكنه اكتفى بتسجيل هذه القرى على اسمه، وصار يستغلها بأيدي فلاحين حضر).

بلنت أكدت في كتابها قبائل بدو الفرات أنه لا تأثير لشخصية جدعان على قومه وعقدت مقارنة بينه وبين فارس شيخ شمّر الذي كان محبوبا من قومه وهذا ما لم تلمسه على ما يبدو بلنت[١]: (.. حتى إن جدعان نفسه كان متقلّب المزاج ودائم الانشغال). تتحدث بلنت عن زيارتها لقوم جدعان بن مهيد لعدة صفحات من كتابها ونجدها بين سطور كل صفحة خصصت سطرين أو ثلاث لوصف جدعان شكلاً ومضموناً[٢]: (كان وجهه عادياً لا نكاد نميزه وملابسه لم تكن مهيبة ولا جذابة، ويملك ابتسامة غريبة باهته، رد على تحياتنا بوقار وسار معنا في صمت إلى خيمته.. إنه جدعان نفسه القائد الكبير للعنزة الذي يجلونه ويشرفونه ويطلقون عليه لقب: أمير العرب).

وأبدت استياءها منه لأن أول حديث فتحه معها وزوجها ولفرد كان بسؤاله عن نسب الفرس التي كانت تمتطيها الليدي والتي على حد تعبيرها كانت "تفتن العيون برأسها الجميل". الليدي اعتبرتها بداية فظة للقاء كان

---

(١) آن بلنت – قبائل بدو الفرات، ص ٣٤٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٤٠ .

منتظراً وعلى ما يبدو أنها كانت متشوقة جدا لرؤية جدعان بن مهيد عن قرب. وتسوق مبررات شخصية بقولها عنه "حديث عهد بالنعمة" أو أن "المركز الذي أحرزه في البادية قد قلب رأسه وأفقده صوابه" ثم تعود إلى وصف ملامح وجهه بحماس وإصرار[١]: (كانت ابتسامة جدعان صفراوية وعاداته محيرة وفظة كما لو أنه غير واثق تماما من مركزه ولو لم تكن عيناه تميزانه لكان كأي رجل عادي غير معروف. ولكن كانت عيناه كعيني الصقر باردة وثاقبة وخيفة..).

وبعد بضعة سطور من محاولة تحليل شخصيته تبدي إعجابها بفروسيته لكن على مضض أو كأنها تعترف مرغمة[٢]: (لقد سرر ت على أية حال عندما رأيته راكباً على اعتبار أنه أشهر فارس في البادية ويمتطي ظهر جواده العملاق، وبالتأكيد سوف يعطي الانطباع الرائع عن براعة البدوي وقدراته في الفروسية، فمقعده على صهوة الحصان يثير الإعجاب.. كان يجلس جيداً على ظهر جواده، ورجلاه تتدليان بسهولة بعد الركبة، بينما بدت يداه مثاليتان).

ما يثير الاستغراب فعلا أمر تعجّب الليدي آن بلنت من براعة جدعان ابن مهيد بركوب فرسه وهي التي قطعت مسافة طويلة لتقابله، مع علمها بسيرته الحربية ومقدار دهائه في المعارك ؟ وعندما رافق الفدعان بواحدة من ارتحالاتهم أبدت دهشتها من سطوتهم على صقورهم المدربة جيداً وفتنت الليدي فيما الصقور تصيد الثعالب والحباري حين يطلقها خدم جدعان بن مهيد.

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٤١.

(٢) المصدر السابق، ص٣٤٣.

وبعد عدة صفحات تعود إلى تشريح ملامح جدعان[1]: (تبرز ملامح جدعان عندما يثار ويغضب، ووجدت في عينيه الجميلتين إشعاعاً غريبا مدهشا، ولهذا اقترحت أن أرسمه فتشجع للفكرة ثم جلس بصبر غير عادي لمدة ساعة، ثم نادى على وكيله ليكتب لنا تحت الرسم لقب أمير العرب- لقبه الجديد في البادية – ويبدو أنه يسر ويفاخر بهذا اللقب كما تسر الناس بالألقاب في انكلترا. إلا أن اللوحة لم تنصفه وأوحت بملامحه الخشنة دون البريق العرضي..) .

وتذكر بلنت القصة التالية في كتابها: ثمة مسحة من الرومانسية تميز علاقة حدعان ابن مهيد بعبد الكريم شيخ شمر: ذلك أن ثأراً دموياً اضطر والد جدعان إلى طلب الحماية في خيمة صفوق، زعيم شمّر، فترعرع جدعان وعبد الكريم معاً. حافظ الرجلان على أواصر الصداقة التي انعقدت في شبابهما، رغم المعارك التي اضطرا إلى خوضها ضد بعضهما البعض. ويحكى أن عبد الكريم أهدى جدعاناً حصاناً سريعاً كان قد أنقذ حياته خلال معركة فاشلة مع الفدعان، وأرفقه برسالة تقول إنه سيعرف كيف يثأر لهزيمته، وهو ما حدث في الاشتباك التالي، الذي نجا جدعان خلاله بفضل هدية عدوه النبيل.

تسجل بلنت انطباعاتها بتفصيل مشوق وتتكلم كثيراً عن جمال ابنتيه وكذلك نسائه وتذكر أنها شهدت زواجه للمرة الخامسة عشرة لكنه غير سعيد، وكان مصراً على إنجاب وريث له غير تركي الذي تصفه بلنت بالأخرق وتقول أن جدعان كان يراه كذلك.

---

(١) المصدر السابق، ٣٤٩.

تركي بن مهيد.. الحضَّاب

سأعتمد على رواية العدو التقليدي لتركي بن مهيد وهو الأمير نوري الشعلان الذي يروي لألويز موزيل سيرة هذا البطل الغريب الأطوار وذلك خلال رحلة قام بها موزيل بين عامي ١٩٠٨- ١٩١٤.

برفقة قبيلة الرولة وبحماية الأمير نوري الشعلان وعندما يحدث ذات مرة وتمر القبيلة من موقع في الحماد حيث يقول النوري مخاطبا ضيفه موزيل[١]: (من هذا المكان انطلقنا، يا موسى، في إغارتنا الأخيرة على تركي شيخ الفدعان. ويعد تركي من الأبطال وشهرته عمَّت الصحراء كلها. سوى أنه ما انفك يستفزّ الرّوَلَة ولا ينقطع عن التحرش بنا. ويعرف تركي عموما باسم "الحضّاب"، أي الحاضر أبدا، وقد اكتسب هذا اللقب لأنه لا يكاد يمر نصف الشهر دون أن يبلغنا نبا إغارة جديدة شنها على تجمع من الرولة. وكم من محارب كان يخشاه والنساء يُخِفْنَ أطفالهن بذكر اسمه، والرعاة يترددون في حمل القطعان على مغادرة تجمعات العشيرة..).

عندما ازدادت وطأته على الرولة فاتفق سطام الشعلان والشيوخ الآخرون على القيام بغارة عليه. مع أنه كان من الناحية الشخصية يحب تركي ولا يريد قتله، لأنه فضلا عن كونه شقيق زوجته المفضلة كان أيضا ذا عقل رفيع وصادق.

---

(١) ألويز موزيل - في الصحراء العربية - ترجمة عبد الاله الملاح- ص ٣٢١.

بيد أن الرولة هددوا بالإطاحة بسطام إن لم يقض على تركي قضاء مبرما ويريحهم منه إلى الأبد، فلم ير بداً من الانصياع. فخرج سطام لخوض معركة حاسمة ومعه ستمئة فارس وثمانمئة من الهجانة، وهو القائد وكان نائبه في تلك الحملة "خَلَف الإذن". سطام رغم عداوة تركي لقومه لم يكن ليغدر فيه وقبيل المعركة بقليل أرسل له رسولا سريا تحت جنح الظلام ليحذره..

لكن تركي رفض الانصياع لنصيحة سطام وأصر على المواجهة..

وفي اليوم التالي دارت رحى القتال حتى غروب الشمس جُرِح خلالها النوري والكثيرون من الرولة وخلال تلك المعركة استهلك تركي بن مهيد ستة خيول والعبيد يبدلونها حسب أوامره، فيما كان سطاماً ينفر من استدعاء الاحتياط، فكان يريد منهم إما حسم المعركة والانتصار وإما تغطية الانسحاب.

وفي النهاية أُصيبت فرس تركي، وفي سقوطها ضغطت على ساقه، وأوقعته على الأرض، ولم يكن بوسعه أن يتحرك بيسر، يعيقه الدرع الذي كان يرتديه وألم طعنتين من رمح.

وفي تلك اللحظة هبَّ غرّاف، عبد سطام، لإنقاذ الزعيم الذي يعاني ويكابد وانتزعه من تحت فرسه، وجاء بالنساء ليحملنه إلى داخل الخيمة. وللتو احتل الخيمة أربعة من عبيد سطّام لحراسته والذود عنه أمام الرولة الغاضبين. ولما صاح الرولة معلنين بابتهاج سقوط تركي أخذت الفدعان بالانسحاب، لولا أن اعترضهم الفرسان الاحتياط وأسرع الهجانة إلى الخيام لأخذ أصدقائهم الجرحى والموتى.

وبلغ الخيمة خلف الأذن الذي يتولى قيادة هجوم الهجانة، وكان سطام يعتني بتركي وحين أوشك خلف أن يوجه إليه ضربة الرحمة حال سطام دون ذلك، فيما خمسمئة فارس يطوقون الخيمة التي تؤوي تركي الجريح وشيخهم

سطام الرافض لقتل صديقه وعدوه بنفس الوقت. وفي تلك اللحظة انطل صوت خلف الأذن مهدداً : "العرب يا سطام لا تقاتل هكذا، انظر إننا لن نسألك مرة أخرى. وقسماً بالله إن لم تخل الطريق فإنك سوف تتدحرج إلى قبرك انظر كل بنادقنا مصوبة إلى صدرك".

سطام يحاول شراء دم تركي بقوله لخلف الأذن: "يا خلف يا وغد بِعني من تبغي ذبحه ولك مني ثمنه ذهباً". لكن خلفاً لم يستسلم، وهنا تراجع سطام وقد استولى عليه الحزن، وخرج مغادراً الخيمة تاركاً تركي لمصيره حيث قتله خلف الأذن..

مجحم بن مهيد

(.. في تلك الأثناء تجولنا - علي وأنا - في المنطقة ووصلنا إلى مراعي الفدعان الذين كانوا قد خيموا في السفح الشمالي لجبال "بشرّي" غرب الفرات، وهناك انتصبت خيمة مجحم بن مهيد الذي أحسن استقبالنا فقضينا معه أياما سارة ..)[1]

(حينما كانت حلب على وشك السقوط بيد الأنكليز والخروج من يد الأتراك والألمان أقبل على حلب من جهات باب النيرب طائفة من عرب عنزة الذين يرأسهم الشيخ مجحم ابن مهيد)[2]

"مجحم بن تركي بن جدعان بن نايف بن خثعم بن تركي بن مجحم بن مانع بن راشد بن مناع بن مهيد".

(تقلد مجحم زمام إدارة العشيرة في العقد الثاني من القرن العشرين، ووصف بأنه من أبرز رجالات البادية الشمالية في الشام وأكرمهم وأشجعهم

---

(١) كارل الرضوان - الخيام السود، ص١٧١.

(١) كامل الغزي، تاريخ حلب.

على الإطلاق، خصوصا في أمور الحرب والمنافسة حيث كان رأس الحرب في معارك العشيرة ضد الآخرين والحرب الدفاعية عن حلب ضد الإنكليز، كما كان ذا سلطان ونفوذ على تلك المنطقة. وقد صنّف الأمير مجحم تاريخياً بأنه من حركة القوميين العرب إذ استبسل في الدفاع عن مناطق حلب حينما كانت المدينة على وشك السقوط في يد الإنكليز وخروج القوات التركية، فقد دخل إليها من باب النيرب على رأس قوة كبيرة من قبيلة الفدعان حيث كان موالياً للحكومة العثمانية التي زودته بالمال والسلاح للقيام بحراسة أطراف المدينة، وبعد هذه المعركة انقلب على القوات التركية إثر اعتقالها فرساناً من عشيرته. وعند اقتراب القوات العربية للمدينة أمر فرسانه بمهاجمة سجون حلب وأطلق سراح المعتقلين فيها)[1].

منحته الحكومة الفرنسية وسام جوقة الشرف لعدم مهاجمته لقواتها أثناء انتشارهم في مناطق دير الزور والفرات ثم رفعت هذا الوسام إلى درجة ضابط بعد أن حفظ الأمير مجحم حياة ضابط فرنسي هبطت طائرته اضطراريا في منطقته حيث عامله كضيف عرب.

كذلك منحته الحكومة الإيطالية وسام تاج إيطاليا للسبب نفسه في حادثة مشابهة لطيار إيطالي.

بعد دخول المجلس النيابي عندما أصبح نائباً لمنطقته في مجلس النواب السوري في سنة ١٩٢٣ تبدلت أفكاره تجاه فرنسا فأخذ موقفاً مؤيداً لحركة الوطنيين السوريين، علماً بأن ابن عمه الشيخ حاجم بن فاضل المهيد الذي كان يرأس العشيرة قبل نضوج الأمير مجحم وقد وقف مع الثورة العربية الكبرى لذلك منحه الملك فيصل لقب باشا وعندما حاول تحرير حلب من أيدي القوات الفرنسية بعد أن ترأس قضاء الرقة تعرضت عشيرته لقصف

(١) أعلام البدو في سورية - تركي فرحان المصطفى- ص٢٤٣

الطائرات الفرنسية فتراجع عن ذلك. كانت الحكومة العثمانية قد منحت جد الأمير مجحم قرى كبيرة من منطقة "جب علي" لكي يسكنها وعشيرته إلا أنهم رفضوا أن يتركوا البادية. وهكذا أصبحت القرى والأراضي ملكاً لحفيده الأمير مجحم، الذي حولها إلى قلعة وحصن ملكاً له ولعشيرته. وكان هناك قصره الشهير في جبل «جب علي» الذي كان يعتبر تحفة مليئة بجاه وعزّ الملوك والسلاطين كما أنه كان من أفخم قصور ذلك العصر: بناء كبير يتميز بواجهة مزخرفة المياه تجري في كل أنحائه محاطاً بحدائق تطل على أجمل المناظر الجبلية ومجهزاً بأحدث أدوات التدفئة والكهرباء وغرف النوم والحرس والحاشية ومواقف السيارات الفخمة التي كان يملكها الأمير وعائلته.
- روى لي الكاتب تركي فرحان المصطفى، عن زيارته لقصر ابن مهيد المذكور، في عام ٢٠٠٥ حيث لم يزل القصر قائماً لكن مهجوراً من ساكنيه باستثناء "عبدة" عجوز ظلت تعيش في القصر ورفضت المغادرة مع من غادر، وقد يستغرب القارئ من قولي "العبدة" لكن كما هو معروف أن غالب شيوخ وأمراء ورؤساء القبائل كانوا محاطين بحاشية من العبيد والذين أُعتقوا في وقت متأخر جداً مقارنة بإنهاء هذه الحالة -".

وقد وزّع الأمير الأراضي على أفراد عشيرته وأصبح من رموز الإقطاع لاتساع ملكه ورزقه وكثرة العمالة والزراعة في أراضيه من فلاحين وأعيان وغيرهم.

أوبنهايم يرى مجحم بن مهيد على طريقته حيث يذكر قائلاً عنه في مؤلفه البدو ص ١٤٥: (تولى مجحم بالاتفاق مع حاجم قيادة قسم من القبيلة قبل الحرب مباشرة. وقد تكاثر أنصاره بسرعة إلى درجة يمكن معها اعتباره الزعيم الحقيقي للقبيلة بأجمعها. وفي الوقت الذي قرر فيه حاجم خوض الحرب من أجل مملكة فيصل السورية، ثم انحاز فيما بعد إلى القوميين

الأتراك، أيد مجحم الانتداب الفرنسي، وتلقى وسام الشرف وعيّن في خريف عام ١٩٢٠ م زعيم عنزة حلب، أي قبيلتي الفدعان والسْبَعَة مجتمعتين..) ويؤكد أن علاقات مجحم مع حاجم بقيت عادية، بل إنه أرسل له خلال الحرب قوات تشد أزره وتسانده ضد قبيلة الخرصة. ويؤكد أوبنهايم أن مجحم بعد وفاة حاجم "٣١ -١٢-١٩٢٧ م" صار زعيم القبيلة الوحيد.

حاجم بن مهيد

كارل الرضوان يذكر في كتابه الخيام السود في عدة مناسبات "**الفدعان**" ومنهم **حاجم بن مهيد** حين يكلفه فواز الشعلان بنقل رسالة لحليفه حاجم باشا شيخ - "القسم الأكبر من الفدعان في الجزيرة بين دجلة والفرات" - على حد قول كارل في مذكراته التي تحفل بذكر للفدعان ومناوراتهم المستمرة لقبيلة الرولة.

لا بد من العودة إلى سيرة تركي بن جدعان بن مهيد حتى نعرف كيف وصل حاجم بن مهيد، ابن شقيق تركي بن جدعان بن مهيد، إلى رئاسة الفدعان.

جدعان بن مهيد الذي مر معنا ذكره مفصلاً، تحديداً، بقلم آن بلنت، ذكرت خلال إقامتها عنده مدى استيائه من كونه يفتقد وريثاً يُعتمد عليه، كان وريثه الوحيد هو"**تركي**"، الذي كان شاباً يافعاً في الوقت الذي زارت فيه بلنت قبيلة الفدعان ولم تخبئ امتعاضها من رعونة تركي ووصفته بالأحمق عدة مرات حيث تقول[1]: (انضم إلى الركب تركي ولد جدعان، وأخذ يشارك في مناورات الخيل بشكل فظ موضحاً بأنه ليس من الفرسان المهرة..).

تركي عقب موت أبيه "جدعان بن مهيد" الحرب، عندما أثار تركي قبيلة الرولة بغزواته ودفعها إلى طلب دمه. وقد وجد صهره الأريب، سطام بن

(١) آن بلنت، قبائل بدو الفرات: ص ٣٤٣.

شعلان، نفسه مكرهاً على القيام بهجوم معاكس، وأرسل إلى تركي يبلغه سرّاً بالخطر المحدق به. لكن هذا استخف بالتحذير، وقبع في معسكره ينتظر بهدوء قوى العدو المتفوقة. وقد سقط في عراك بالسلاح الأبيض ١٨٨٧م، استعرت، بعد موت تركي، الحرب بحدة وبصورة مضاعفة، وفشلت الرولة في إقامة السلام من بعده. ولم يعقد الصلح ويتم التغاضي عن الدم المسفوح إلا عام ١٩٠٠م بعد تدخل "المحايدين" من شيوخ القبائل الأخرى. أخت تركي "رفعة" التي كانت متزوجة من شيخ الحْسَنَة سعود بن ملحم رفضت التنازل عن حقها في الثأر، وحدث أن أحد قتلة تركي حل في منزلها، انقضّت على "الربعة" حيث يستقبل البدو ضيوفهم وكان القاتل بين الضيوف فرمته بطلقة من مسدسها فأصابته بجرح خطير تسبب بموته لاحقاً.

تركي خلف وراءه ولدين صغيرين هما "**مجحم ومحمد**"، وابن عم في التاسعة عشرة من عمره هو: "**حاجم**" الذي ترعرع في بيته. فرأت جدتهما أم تركي أن تقيم لهما وصياً نائباً يتولى رئاسة الفدعان ريثما يبلغان أشدهما فوقع اختيارها على ابن عمهما حاجم بن فاضل بن صالح آل مهيد، وذهبت بالصغيرين وبحاجم إلى والي حلب إذاك وطلبت إليه أن يقلد حاجم المشيخة على الفدعان حتى يكبر مجحم، ففعل الوالي ما طلبته وتولى حاجم المشيخة سنيناً عديدة ولقب بباشا في عهد المرحوم الملك فيصل.

كان حاجم بن مهيد ذا نزعة عربية، وعندما قامت الثورة العربية ١٩١٦ م أيدها وابتهج عندما ارتفع العلم العربي فوق دار السرايا في ١٠ كانون الأول عام ١٩١٨ م وشارك حاجم بالاحتفال وقد أنعم عليه الشريف حسين بلقب باشا .

وفي كتاب أحاديث العشيات يذكر عبد السلام العجيلي قائلاً: (بعد معركة ميسلون في ٢٤ تموز ١٩٢٠م صدمت آمال الأمة وأعلن حاجم باشا

دولة الرقة المستقلة بتاريخ ١٠ آب عام ١٩٢٠م بمساعدة رمضان باشا الشلاش والعناصر الوطنية في الرقة وحلب ودير الزور)[١].

أرسلت القوات الفرنسية رسالة في شباط ١٩٢١ م موقعة من الجنرال دولامونت إلى حاجم بن مهيد رئيس الحركة الوطنية يدعوه للمفاوضة على أن يدافع عن الحدود الشمالية ضد الأتراك، ويدفع له رواتب جيشه المكون من ألف رجل من الفدعان و١٧٠ دركياً لحفظ الأمن في ريف المنطقة وداخل المدينة وبعض المتطوعين من عشائر البوشعبان حين حدوث حالات طارئة أو قيام حرب. تعهد الجنرال دولامونت على أن يعطي رواتب لكافة جيشه ويمنح له مئة ألف ذهبية منحة شخصية. ولكن جواب حاجم بن مهيد الرجل الوطني للجنرال دولامونت: "إنه لم يقم بهذه الحركة ابتغاء المال" أعادت السلطات الفرنسية اتصالها بدولة حاجم باشا، وكان مندوبهم الدكتور فرج غنيمة يرافقه المترجم السيد أردشير وضابط فرنسي برتبة كابتن، على أن يكون الاجتماع في قرية عين البيضا في نواحي حلب - ورفض حاجم باشا والمجلس كلهم الاتصال بالجانب الفرنسي.

(جمع حاجم بن مهيد مجلسه الوطني المؤلف من ستة عشر رجلاً برئاسة قائمقام الرقة المعين الشيخ محمد الهويدي "شيخ عشيرة العفادلة"، والشيخ فيضي الفواز ضابط المخابرات، وعبيد آغا الكعكة جي رئيس البلدية والشيخ حسن الدرويش البوحبال (رئيس عشائر الحمرة) ووهبي المهاوش العجيلي كاتب الرسائل، وإبراهيم الخليل الملحم "عشيرة البوحميد" المسؤول المالي وأحمد الحاج عبد الله الموصلي عضو المجلس وبقية أعضاء المجلس الستة عشر، وقرر الجميع الاتصال بالجانب التركي والطلب منهم أن يمدوهم بمدافع حديثة، والاتصال بالمجاهد إبراهيم هنانو للزحف على مدينة حلب من

(١) الرقة كبرى المدن الفراتية، عبد القادر عياش ج٢ ص ٢٣.

جهة الشرق والجنوب من قبل ثوار الرقة، وكان جواب إبراهيم هنانو بالإيجاب وهو أن يهاجم حلب من جهة الغرب والشمال، وسيلتقي الجميع مع المدد التركي في قرية تل أحمر على الفرات جنوب جرابلس. يقول المؤرخ نورمان لويس :"وصارت قوات الرقة تقطع طرق التجارة بين حلب ودير الزور وبغداد وصار يموّل جيشه من هذه الأتاوات ومن الخزينة المحلية بقروض من الأهالي - كما يؤكد الدكتور عبد السلام العجيلي في "أحاديث العشيّات".

بالتنسيق مع الحركة الوطنية في حلب زحف الجيش والمتطوعة نحو حلب وفي ١٦ حزيران ١٩٢١ م وصلوا إلى جبال الأحص وهناك قصفتهم طائرة فرنسية، وقد هالهم حجم هذا الطائر الكبير الذي يرميهم بنار من السماء، فقال أحد شعراء الفدعان :

طيـــارة فوقنـــا حامـــت ذبّت على الجيش بمبـــاتِ

والبارحة العين ما نامت ما تدري الصبح وش ياتي

بلغت الأخبار السيئة الرقة حول الاتفاق بين تركيا وفرنسا على ترسيم الحدود كما حصل في معاهدة أنقرة الموقعة في ٢٠ تشرين الأول عام ١٩٢١م، عندها يئس حاجم باشا والمجلس الوطني بالرقة) [١].

وفي ١٢ كانون الأول ١٩٢١ عبرت قوات الكولونيل دي بغوار نهر الفرات نحو الفرات فلم تلق أية مقاومة، وسرّح حاجم باشا جيشه في ١٦ كانون الأول ١٩٢١ وطلبته السلطات الفرنسية وحاكمته في مدينة حلب، ولكن الشيخ مجحم بن مهيد توسط له واستقر في "عين عيسى" ووقع صك الاعتراف بالانتداب الفرنسي في ١٩ تموز عام ١٩٢٢ م واستأنف نشاطه

(١) أعلام البدو في سورية – تركي فرحان المصطفى ص٧٥

القبلي. مرض حاجم بن مهيد بذات الرئة وتوفي بعد أسبوعين في عام ١٩٢٧م.

ماكس فون أوبنهايم الذي زار حاجم بن مهيد في مضاربه الكائنة في "عين عيسى" في شهر أيار من عام ١٩١٣ م وصفه بقوله[١]: (كان رجلاً متوسط القامة، له لحية سوداء مدببة وطليقة، نحيف الجسم مع انحناءة خفيفة في الظهر، كيّس وذكي وحكيم. إنه القائد السياسي، بينما يحتل ابن عمه الشاب موقع العقيد، بمظهره الذي يدل على أنه رجل حرب حقيقي. أما شقيقه الأكبر مجحم فيعطي انطباعاً بأنه بارد الأعصاب إلى أبعد الحدود. وعلى رغم أنه لا يشارك إلا قليلاً في الحروب، فإن اسمه يرد كثيراً في تاريخ قبيلته والبدو الآخرين).

(١) أوبنهايم، البدو، ج١ ص ١٤٥.

الوَلْــدَة

عشيرة كبيرة من الأبي شعبان، ومنازل الولدة في ضفتي الفرات أي في الجزيرة وفي الشامية من شمس الدين إلى الرقة، وجاءت تسميتهم بالولدة من جراء معركة كبيرة قتل فيها كل رجالهم، ولم يبق سوى الأولاد، ولما ترعرع هؤلاء وتناسلوا، سميت أعقابهم بالوِلْدة بكسر الواو وسكون اللام فعدوا أرومة العشيرة، وقد قسم الفرات هؤلاء الولدة إلى قسمين: ولدة الجزيرة وولدة الشامية، فولدة الشامية يقيمون في ناحية السبخة من الدبسي حتى قرية السحل في ضفة الفرات اليمنى، أما ولدة الجزيرة فيبلغون نحو ٢٥٠٠ بيت يدير شؤونهم الشيخ شواخ البورسان. هذا الكلام لأحمد وصفي زكريا كما كانت حال الولدة في النصف الأول من القرن العشرين

شوّاخ البورسان

شواخ البورسان، شيخ قبيلة الولدة في الجزيرة الفراتية، ولد في قرية شمس الدين، على ضفاف نهر الفرات. تولى المشيخة بعد وفاة أبيه أحمد البورسان. تلقى علومه الأوليّة والابتدائية على يد بعض الأساتذة الخصوصيين. انتخب نائبا في دورة المجلس النيابي لعام ١٩٤٧ م وقد منح رتبة رئيس فخرية في الجيش العثماني. انتمى إلى الحزب الوطني وشوّاخ البورسان كان على رأس مجموعة عرب الولدة عندما سار مع رمضان

الشلاش في حملته العسكرية التي انطلقت من الرقة في مواجهة قوات الاحتلال.

في العهد الفرنسي[1] كان الشيخ شوّاخ البورسان بالتنسيق مع إبراهيم هنانو يشن الغارات مع الثوار الذين انضموا إليه على القوافل التي تحمل الإمدادات العسكرية والتموين إلى جهات القامشلي والحسكة وماردين وأورفة. كما قام أيضا بمهاجمة منطقة تحتلها القوات الفرنسية وما كان منه إلا أن أنزل العالم الفرنسي ورفع بدلا منه العلم العربي. أرهق الفرنسيين بهجماته المتكررة على مخافرهم وكانت هوسة الثوار هي هوسة عشيرة الولدة الشهيرة:

"حرشة وعطشانة تريد الشر ما تهاب طوابك والعسكر"

في آب من عام ١٩٤١ م هاجمت القوات الفرنسية قبيلة الولدة في عقر دارها بالمصفحات والبنادق والرشاشات وظلت تلك الواقعة الأليمة في ذاكرة الرقة ما يشبه تاريخا تعرف "بمذبحة الولدة".

(١) عشائر الشام: ص ٥٨٩-٥٩٠. ولا بد من الأخذ باعتبار أن أرقام البيوت وأماكن تواجد العشائر التي يذكرها سواء أوبنهايم أو بلنت أو بوركهارت أو وصفي زكريا وغيرهم من الذين اعتمدنا كتاباتهم مصادراً للبحث، لا بد خضعت للتغيير أو الانزياح أو التعديل بحكم الفارق الزمني بين زمن إعداد هذا النص والزمن الذي تمت فيه توثيق المشاهدات العينية المباشرة .

الرْوَلَــة

من أمنع قبائل "عنزةْ" في بلاد الشام، القبيلة التي استطاعت الاحتفاظ بالعُطْفَة أو كما درج المستشرقين على تسمية العطفة بـــ"مركب الحرب" أو "أبو الدهور" كما يسميه ألويز موزيل. والعطفة هودج نسائي مزين بطريقة خاصة تعتليه واحدة من أرفع البنات نسبا وأكثرهن جرأة وطلاقة وتسوقه أمامها خلال الحرب وتظل تنخي مقاتلي قبيلتها حتى نهاية المعركة: النصر أو الموت. وعادة يستميت الفرسان بالقتال قريبا من مركب "العطفة"، وتسيل دماء كثيرة حولها، حتى لا يغنم الطرف الآخر فتاة "العطفة"، وفي حال حدث ذلك فإن القبيلة المهزومة والتي خسرت عطفتها لا يمكن لها أن تشارك بعطفة جديدة إلا إذا غنمت عطفة قبيلة أخرى تخوض معها حرباً. والرولة لم تخسر عطفتها رغم تاريخ طويل من المعارك والحروب القبلية. روى لي أحد المعمرين من الرولة من آل الشعلان كيف أنه لدى تنفيذ مرسوم الإصلاح الزراعي وما تلاه من مراسيم تحارب الإقطاع، تمت مصادرة منطقة "عدرا" القريبة من دمشق وكانت من أملاك آل الشعلان، جاء الموظفون للاستيلاء ما رأوا أنه ملك للشعب؟! فكان أن أرادوا ضم هودج خشبي متهالك مزين بريش النعام لبقية أغراض كانوا مصرين على مصادرتها كرمى لعيني الشعب؟ تعالت أصوات بكاء من حناجر عجائز العائلة تأسفاً على "مركب العطفة" ورفضوا تسليمه لموظف لا يعرف شيئا عن قيمة الهودج المعنوية.. "اللي ما يعرف الصقر.. يشويه".

الرولة تعد أكبر قبيلة «رُحَلّ» في الشمال دأبت على الظهور صيفاً في أرجاء سورية وبلاد الرافدين، بصحبة أعداد هائلة من الجمال، وشتاءاً تنسحب إلى جوف الصحراء جنوباً.

تنتمي إلى "عنزة" أقدم قبائل الجزيرة العربية. ويمكن تتبع تاريخها إلى الحقبة الجاهلية. وأقدم من بكر وتغلب بستة أجيال، تضم "الرولة، السبعة، الموايجه، العمارات، الفدعان، الحسنة..".

كانت عنزة تستقل بنفسها في العصر التركي، عندما تقوم بترحالها الشتوي، قبل أن تعود خلال فصل الصيف إلى قبضة الحكومة، التي كانت تستطيع عندئذ منعها من بلوغ الأسواق والمراعي، ضمن مناطق معينة. أدت إقامة عنزة في الأراضي الزراعية إلى منازعات كثيرة مع السكان الأصليين، أحجمت الحكومة عن التدخل فيها بوجه عام، ما لم تهدد مصالحها المالية. عندئذ، كانت الوسائل التي تستخدمها معروفة، تقتصر أساساً على تحريض شيخ ضد آخر وقبيلة ضد أخرى، واستدراج زعماء عنزة إلى كمائن وأفخاخ..

تصاعد نفوذ الحكومة على عنزة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بحيث أخذ باشا دمشق يتحكم في ترحال الرولة الصيفي عام ١٨٧٨م، مع بروز تطلعات رسمية إلى حرمانها من حياة الترحل. صحيح أن محاولة "أرسلان باشا" متصرف دير الزور حوالي عام ١٨٧٠ م لتوطين قبيلة السبعة إحدى قبائل العنزة قد أخفقت كما تؤكد الليدي بلنت في مؤلفها قبائل بدو الفرات. لكن قبيلتي ولد علي في حوران والحسنة قرب حمص – من قبائل عنزة – بدأتا تمارسان الزراعة في نهاية القرن التاسع عشر وتحول شيوخ عنزة الكبار جميعهم إلى ملاّك قرى وأراض أهداها إليهم السلطان عبد الحميد، وشدتهم الحكومة إليها من خلال منحهم مناصب وألقاباً وقروضاً مالية.

تتمتع الرولة بتماسك تفتقر إليه أية قبيلة أخرى من "عنزة"، يرجع إلى الشخصيات القوية التي أنجبتها أسرة شيوخها. تسلك القبيلة طريقين في ترحالها: واحدة تقود إلى النقرة عبر وادي السرحان، وأخرى تمر بالحماد ثم تنقسم بمحاذاة دمشق وتذهب إما إلى الشمال نحو تدمر ومن هناك إلى القريتين - الضمير، أو نحو الغرب عبر الصقيل إلى خان الشامات - الضمير، لتبلغ كتلة الرولة الكبرى من هناك النقرة والجولان (الشيخ سعد - تل الجوخدار - فيق). بينما بقصد قسم صغير منهم مراعي حمص من القريتين مرورا بالفرقلس، ويتوغل من حين لآخر إلى داخل البقاع[1].

(١) للمزيد يمكن مراجعة كتاب أوبنهايم: البدو، ج١، بين ١٧٣ و١٩٥ ص، حيث نطالع شجرة النسب التي تربط الرولة بالأم الكبرى عنزة وبقية قبائل عنزة مثل "الحسنة والفدعان والولد علي والسبعة والعمارات".
وأوبنهايم يتقصى معظم ما ذكره الرحالة الغربيين عن الرولة مثل السويسري بوركهارت ومزيل وبلنت وتيرييه، كذلك شجرة نسب شيوخ ابن شعلان.

الدريعي ابن شعلان

خير ما ذكره وقد عرف هذه الشخصية عن كثب، هو فتح الله الصايغ الحلبي الذي كان قد رافق تيودورلاسكاريس[1] ابتداءاً من سنة ١٨١٠ م حتى صيف ١٨١٤ م وتجول خلالها في بادية الشام وصحارى العراق والعجم وتجاوزها على ما يذكر إلى حدود إيران الشرقية حيث قابل الأمير سعد البخاري رئيس قبائل عرب الهند، ثم قطع الحماد وزار الدرعية، عاصمة الوهابيين يومئذ. وكل ذلك كان برفقة عرب الدريعي بن شعلان كترجمان لتيودور لاسْكاريسْ الذي جال البادية الشامية دارسا أوضاع الزعماء فيها إلى

---

(١) تيودور لاسكاريس التقى بالجنرال بونابارت في جزيرة مالطا، عند حملته على مصر سنة ١٧٩٨م. استعان بخدماته عندما خرقت إنكلترا معاهدة اميان سنة ١٨٠٣، رأى نابليون أنه لا يستطيع أن يضرب عدوه في قعر جزيرته، بسبب تفوق الأسطول البريطاني، فخطط للقضاء على اقتصادياته، وذلك بقطع طريق الهند على الإنكليز ولأجل الوصول إلى هذا الهدف، كان لا بد له أولاً أن يعمل على توطيد العلاقات الفرنسية مع أمراء البادية ومشايخها، فكلف لاسكاريس بهذه المهمة ونجحت مساعيه ولكن حين هم بالعودة إلى فرنسا علم بسقوط الإمبراطور الفرنسي، فذهب إلى القاهرة مغموماً يائساً، حيث وافاه الأجل. فوضع القنصل البريطاني يده على مخلفاته، وخاصة على مذكراته وأوراقه، ولا يعلم أحد ما كان مصيرها. لكن شاء القدر ألا تضيع تفاصيل تلك الرحلة الغريبة تماماً وذلك حين وقعت مذكرات الشاب الحلبي فتح الصايغ بين يدي أديب وعاشق للشرق من طراز لامارتين ولازالت محفوظة في المكتبة الوطنية في باريس تحت رقم ٢٢٢٩٨ .

أن اهتدى إلى الدريعي بن شعلان ورأى فيه الشخصية الذكية التي يمكن الاعتماد عليها لإرضاء طموحات نابليون بمساعدة الجيش الذي سيمر بالشرق عبر الصحارى صوب الهند كما كان يخطط نابليون ليقطع الطريق على الانكليز والذين أوفدوا الليدي ايستر ستانهوب لتعطيل مخطط جاسوس نابليون – على ما يؤكد فتح الله الصايغ الحلبي التي اشترى مخطوطها لامارتين وقام بترجمتها إلى اللغة الفرنسية وأنقذها من الضياع. وعرفها الغرب قبل مئة وخمسين عاماً.

إذ ترجمها الشاعر لامارتين وصدرت ضمن الجزء الرابع من كتابه رحلة إلى الشرق[1] :

(بعد مسير ثلاثة أيام، عند المساء، كشفنا على نزل الدريعي، وكان نزلا عظيما نحو ألفي بيت شعر، الطنب بالطنب "الطنب هو الحبل الذي يشد به البيت"، ورأينا من بعيد من المواشي والجمال ما يغطي عين الشمس، ولم نر مثل ذلك عند غيره من العربان .

فتقدمت إلى بيت الدريعي، وكان الوقت بعد غياب الشمس، فدخلت وسلمت عليه، فرحب بنا وحالاً أمر بالعشاء. وبعد العشاء سألني من أين وإلى أين يا شاب؟ قلت: يا سيدي من حلب إلى عند جنابك بغرض. فقال: حلت البركة بمجيئك، غرضك مقضي بعون الله، ولكن عادة الضيف عندنا يقعد ثلاثة أيام وبهد ذلك يتكلم على غرضه، قلت: السمع والطاعة. ثم نمنا وثاني يوم كتبت حالاً إلى الشيخ إبراهيم والى موسى الوردي وأعطيت المكاتيب إلى مصطفى وزودته بالدعاء وتوجه إلى القريتين.

وجلسنا مع الدريعي نتحدث، وهو رجل ذو نخوة زائدة، عمره نحو خمسين سنة، لحيته كوساة بيضاء، جسيم، أسمر اللون، جريء. وجميع ما

---

(١) رحلة فتح الله الصايغ الحلبي ص ١٠٢.

سمعنا عنه موجود به حقيقة، وله ولدان ذكران، الواحد اسمه سحن وهو الأكبر، والثاني سعدون. وهما متزوجان ومقيمان عنده بالبيت. وبيته كبير.. وعربه أغنى نوعا ما من غير عشائر، وعندهم من الخيل العظام المشهورة ويقال لقبيلته الرولا وهي تحوي على خمسة آلاف بيت. هذه هي عشيرته، إلا أنه كثيرا من العشائر تنقاد له، بعضها فرضاً، وبعضها خوفاً وبعضها محبة. فبان لي أنه رجل على قدر حاله في كل أمر، وأن جميع ما قيل عنه صحيح..).

يشير المؤرخ محمد البسام المتوفي سنة ١٢٤٦هـ في كتابه: الدرر المفاخر أن الأمير الدريعي بن مشهور الشعلان في ذلك الزمن كان أميراً لقبيلة الرولة وشيخها العام مع لواحقها من عشائر المحلف. جميعهم يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه، فهو مرجعيتهم في السلم والحرب على حد سواء. وفي ذلك يقول المؤرخ المذكور: (الرولة شيخهم الدريعي المشهور وهذه القبيلة أطول باعاً في الكرمة ورعي الذمم والمساواة للعائل ولارتكاب الفضائل والطعن في المذائق والضرب في المفارق أولئك المجد عليهم أجمل وأخبارهم في المكرمات أعرض أطول).

اتسمت بدايات سياسة الأمير الدريعي المشهور بعدائه الواضح للدولة العثمانية ولمصالحها في المنطقة ولذلك تم الاسطدام معها مرات عديدة وفي ذلك ذكر السويسري بيركهارت أن الرولة حاربت جيشاً مؤلفاً من ستة آلاف جندي تركي أرسله والي بغداد لكبح غلوائها في المنطقة وهزمته هزيمة نكراء.

وقد أدى هذا العداء بين الرولة والدولة العثمانية إلى التقارب الديني والسياسي والعسكري بين ابن سعود والرولة بمشيخة الدريعي المشهور الشعلان.

وبعد أن أشتد نفوذ الرولة لم يكن أمام الولاة العثمانيون في الباب العالي سبيلاً من التقرّب إلى شيخ الرولة العام الدريعي بن مشهور الشعلان، فعرضوا عليه سبل التقارب و منحوه لقب أمير في البادية العربية وعرضوا عليه مناصرتهم ضد خصومهم وحماية مصالحهم مقابل أن يكون في حمايتهم، طلبه مجاب وكلمته مسموعة وذلك في سنة ١٢٢٣هـ ؛ ١٨٠٨من كما[١] (تشير الوثيقة العثمانية التالية في ذلك الوقت، وهي فرمان همايوني وجهه الباب العالي في الأستانة إلى الأمير الدريعي.

صورة قوبجي "فرمان سلطاني"

الباب العالي

الصدارة العظمى

مكتب آمدىء ديوان همايون

٥٠٢١

قدوة الأماثل والأقران ساكن أيالة بادية الشام والجوف الأمير الدريعي الشعلان رئيس عربان قبيلة الرولة من عنزه زيد قدرهُ

بعد السلام المنهي إليك يكون معلومك هذا التوقيع الرفيع الهمايوني الواصل إليك هو أنه وجهنا إيالة الشام وأميرية الحج وسر عسكرية الحجاز إلى عهدة الدستور المكرم وزيرنا المفخم كنج يوسف باشا أدامَ الله جلاله وأمرناه لتولية إيالة الشام لأجل ضبط وربط المملكة ورفع شرور أرباب الفساد.

وأنت أيها الأمير المومأ إليه تُظهر حسن الصداقة و تكون تحت أمر ورأي وتحرير وزيرنا المشار إليه في بادية الشام فبناء على ذلك أصدرنا لك أمرنا هذا الشريف مخصوصا وأرسلناه حال وصوله تكون أنت ومن في أمرتك من عربان حويطات وأبناء شاكر ووزيرنا رأي واحد في سائر الأحوال ساعيا بحسن الغيرة لما يأمرك به واحتذر المخالفة على الوجه المشروح بموجب صدور أوامرنا الشريفة تكون ممتثلا ومتتبعا واعتمد هذه العلاقة الشريفة غاية الاعتماد تكون عندنا عزيزا مُجاباً محفوضاً والسلام.

---

(١) أعلام البدو – تركي فرحان المصطفى، ص ٩٤.

تحريراً في: ٢ مايس سنة ١٢٢١ مالي، ١٢٢٣ هـ ١٨٠٨ م، الأستانة.

الصدر الأعظم

شلبي مصطفى باشا

الخاتم والتوقيع

ومآثره الأصبحت قبيلة الرولة في عهد الأمير الدريعي بن مشهور الشعلان قبيلة منيعة على أكبر قبائل البادية مجتمعة، فسادت البادية الممتدة من غرب الموصل إلى الفرات شمالاً وأنحاء حوران والأردن جنوباً طيلة عقود عديدة. وقد ورد ذكر الدريعي في العديد من كتب الرحالة والمستشرقين حيث تحدثوا عن أعماله الحربية وقبيلته ومنعتها بين قبائل البادية، وقد أورد ذكر بعض مآثره الحربية ألويس موزيل في مؤلفاته عن الرولة. فإضافة إلى مميزاته الحربية ترك وراؤه مرويات شفاهية تخلد قصصا بطولية كان الدريعي نجمها المطلق لم يزل قومه يتفاخرون بها[١].

(١) يمكن الاطلاع على الموروث القصصي والشعري "الثري" للقبيلة على مواقعها الالكترونية ومنتدياتها.

نوري الشعلان

(إهداء - إلى الأمير نوري الشعلان وعائلته وقبيلة الرولة للفرص الفريدة التي مكنتني من اكتساب المعرفة الدقيقة بالتقاليد العربية والعادات البدوية، والتجوال في المنطقة المجهولة حتى تفهمت روح بلادهم العربية والعادات البدوية، والتجوال في المنطقة المجهولة حتى تفهمت روح بلادهم الغامضة .) [1]

(في الجنوب الغربي غطّت الخيام السود وقطعان الجمال الغبراء السهل، وهرول نحونا الرجال المسلحون على ظهور خيولهم الرشيقة عندما اقتربت بصحبة عدة فرسان- ولأول مرة في حياتي- من "المنازل" المنسوجة من شعر الماعز، من مضارب بدو الرولة.

هؤلاء الحراس الفرسان الذين أتوا لملاقاتنا قادونا إلى خيمة عبد عجوز صبغها الدخان. وهنا استقبلني الأمير نوري الشعلان أمير القبيلة ذو اللحية الرمادية. وقبل بدء الحرب العظمى الأولى بعامين استبدل الأمير نوري بخيمته المريحة مخبأً وضيعاً لأحد عبيده، واختبأ فيه بعد أن أخطر بنشاط المطالبين بالثأر منه وهم رجال من أهله..)[2].

---

(١) كارل الرضوان - الخيام السود - ص ١٥.
(٢) المصدر السابق، ص ٢٣.

ويذكر كارل أن نوري كان أباً لعائلة كبيرة ينسب إليه ٨٢ ولداً ٣٧ منهم ذكوراً. وقد مات معظمهم تقريباً ميتة غير طبيعية .

لم تستتب له قيادة العشيرة تماماً إلا عقب العفو الذي أصدره سامي باشا عام ١٩١٢م قبل فترة وجيزة من نشوب حرب البلقان، وتوطدت مكانة نوري منذ ذلك الوقت ولم تتعرض لأي اهتزاز، بل إنه منح لقب الباشوية فيما بعد، وأصبح يُكنى بـــ"الأمير" بعد أن أبدى رغبة كبيرة بهذا اللقب.

وعن ثروة نوري يذكر أوبنهايم جمع نوري ثروة خاصة كبيرة، من ضياع واحتي الجوف والكاف، فهو يمتلك بيتاً في دمشق وأراضي وسيارات عديدة. وقد قدم موزيل في مواضيع كثيرة من كتابه حول رحلاته، وخاصة البند الخاص بالرولة "الصفحة ٥٨ وما يليها" معلومات دقيقة عن أوضاعه المالية قبل الحرب، تخبرنا أن مصادر دخله الرئيسة كانت واحة كاف، حيث يوجد وكيل ينوب عنه "هو من العبيد بطبيعة الحال"، يقدم له كل عام ضرائب تبلغ خمسمائة مجيدي. هذا إضافة إلى رسم يعادل نصف سعر كل حمل ملح يصدر من كاف. ولا ننسى الخوة المفروضة على المرور في وادي السرحان، وعائدات قطعانه..

(استقر نوري بعد الحرب العالمية في دمشق، حيث تعرضت صحة الشيخ الذي تخطى الثمانين إلى متاعب شديدة في سنواته الأخيرة، حتى أن المرض كان قد فتك به عام ١٩٢٩ م، عندما قابلته في بيته الدمشقي، الذي امتنع تماماً عن الخروج منه) [١].

في صورة التقطها له أوبنهايم في عام ١٩٢٧ م من الواضح أنها التقطت في البرية يبدو النوري مع طفل صغير لا بد أن يكون أحد أحفاده.

---

(١) أوبنهايم – البدو – ج١ – ص١٨٥.

نوري الشعلان وألويز موزيل[١]

يقول عنه في كتابه "في الصحراء العربية - رحلات ومغامرات في شمال جزيرة العرب"[٢]:

(كان هذا الرجل الذي يحمل براءة الأطفال في عينيه يفخر بأنه قتل شخصيا في المعارك ما يزيد على مئة وعشرين رجلاً! ولكم حذّرني أصدقائي في دمشق منه، وهم يصفونه بأنه أشد تعطشاً للدماء من النمر الأرقط) وقبل ذلك يذكر عنه قائلاً[٣]: (أثار فضولي أنني كنتُ أرى النوري يثقل نفسه بالسلاح. حيث يتمنطق بخنجر ومسدس غاسَر ببكرته ذات الثمان طلقات والجنادات حول كتفيه فيها ذخيرة من ثمان وأربعين خرطوشة وقرابة مئة وعشرين طلقة مانليخر وبندقية لا تفارق يده أبداً).

وفي موضع آخر يذكر موزيل الصيغة التي حذّره فيها البعض من مضيفه نوري الشعلان[٤]: (لا تمنحه ثقتك، يا موسى، ولا تثق بوعده بالحماية، فسوف تجده يصطحبك معه إلى البادية ولن تعود بعد هذه الرحلة. وإنه ليس بحاجة لأن يلطّخ يديه بدمك، فلديه عبيد ينفّذون أوامره ولسوف

---

(١) ألويز موزيل "الشيخ موسى الرويلي" رحالة تشيكي من أعلام الرحالة المستشرقين. اختص بتراث البداوة ولغتها ولهجاتها وموروثها الأدبي والشعري. وأمضى في المشرق العربي عشرات السنين يجول ويكتب عن عشائر البدو. وعن طبوغرافيا وآثار الأردن وفلسطين وسورية وشمال جزيرة العرب. إضافة إلى مآرب سياسية حملها معه بغية توحيد صفوف القبائل لصالح الألمان وهذا ما فشل به ألويز موزيل بينما نجح به نجاحاً باهراً " ت. أ. لورانس" الملقب بلورنس العرب.

(٢) ألويز موزيل - في الصحراء العربية - ترجمة عبد الإله الملاح - صفحة ٢١.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٠.

(٤) المصدر السابق، ص ٢١.

تتعرّض للاعتداء مرّات عديدة، بأمر من النوري. وكم يسهل أن تصيبك طلقة تستقر في ظهرك أو صدرك وتنهي حياتك. ولسوف ينتحب النوري عندئذٍ ويبكي زاعماً أن القتلة أعداءٌ له. فلا تثق به ولا ترافقه إلى قلب البادية. ولكني كنتُ أثق به، وقد سحرتني عيناه). الرحلات الكثيرة التي يقوم بها موزيل برفقة النوري تثبت عكس ذلك. لكن من كان يقول ذلك كان يقصد قصة سرية كانت تتناقلها الرولة حول أن النوري كان وراء مقتل شقيقه الأمير فهد.. لكن لا إثباتات حول ذلك ....

كل ما يمكن أن نقرأه حول سيرة نوري الشعلان تؤكد أنه نسخة عن جده الشهير "الدريعي بن شعلان".

فواز الشعلان

(إنني مدين لهذا الغلام بفضل حياتي مع الرولة كواحد منهم، والسماح لي بزيارتهم إحدى عشرة مرة خلال اثنتين وعشرين سنة ومشاركتهم في الترحال والصيد والحرب وعبوري المتكرر لمراعيهم عاماً بعد عام على ظهور الخيول أو الجمال)..

بعد ظهر أحد الأيام كان فواز الصغير ومجموعة من أصدقائه الصبية يتدربون بالمقاليع وهي السلاح الذي قتل به داوود غولياث. كانوا يرمون الحجارة المسطحة بدقة مدهشة على الأوتاد الخشبية المعقوفة، التي يبلغ ارتفاعها قدماً واحداً من مسافة ثلاثين خطوة وخرجت من خلف الخيمة دون أن يراني الصبية وصادف أن حجراً أصاب الهدف بالقرب مني وارتد من الصقيل فأصابني في جبهتي بين العينين. وقد أصبت بالذهول للحظة نتيجة للصدمة لا نتيجة للضربة نفسها. وحسبت لأول وهلة أنني أصبت برصاصة.

وهرع إليّ فواز بفم فاغر ووجه خائف. ولاحظ الجرح في جبهتي وبضع قطرات من الدم على أصابعي التي ضغطت بها على جبهتي أثناء ارتباكي. وعندما أخذت الصبي بين ذراعي ورفعته ضاحكاً ليعلم أن القضية ليست بالخطيرة علت وجهه نظرة غاضبة كما لو أنه أهين. وتملص من بين ذراعي ووقف أمامي ثم نزع كوفيته وعقاله من رأسه تاركاً جدائله الست الجميلة تسقط على كتفيه وتصل حتى فخذيه. وصاح والدموع تنحدر من

عينيه الجريئتين: "أنا دخيلك إنني أسلمك نفسي بوجه الله: أخبرني عن ثمن دمك" لم يبد في صوته أي ندم كما لم يعبّر عن أي رغبة في الغفران. كانت كلماته تحدياً واضحاً لأنه اعتقد أنني سخرت من عرضه. واندفع قلبي نحو هذا المخلوق الصغير. لقد أحاط نفسه بجو من التحفظ والكبرياء، ومع ذلك كان من المستحيل أن أغضب منه.. لم يكن من المهم كمية الدم الذي أريق والذي كان في هذه الحادثة بضع قطرات، فالشيء المهم لديه هو القانون البدوي غير المكتوب.. كان عليّ أن ابتسم عندما فكرت في الثمن المقدر لبضعة قطرات من دمي، ولكنني خارجياً أعدت الوقار إلى وجهي واستدعيت الأولاد الآخرين والرجال الذين تجمعوا حولي ليكونوا شهوداً، وقلت للأمير فواز: "لقد حدث ذلك حسب مشيئة الله. إنني لا أعرف أي ثمن آخر سوى صداقتك". وساد الذهول التام لحظة من الزمن. وحدّق نحوي بعينين واسعتين. ومن المرجح أن الأمير فواز لم يستطع أن يصدق أنني- الغريب - أستطيع أن أستشهد بعادة أجداده القديمة. وفجأة رمى المقلاع المشؤوم وتقدم نحوي بذراعين مفتوحين وضمهما حول عنقي بتأثير صبياني عندما انحنيت نحوه. وبعاصفة من الحب البهيج ضممت الصبي إلى صدري وقبلته على الخدين. وبإصبعه الصغيرة لمس برفق الخدش على جبهتي ودلك أربع قطرات من الدم على جبهته بين حاجبيه الأسودين وهذا هو المعروف بدويا بنور الدم.

وبهذه الطريقة الغريبة الدرامية أصبحت - بمشيئة الله - أخ الأمير فواز بالدم. وبعد فترة قصيرة تعمدت صداقتنا بالنار. خرجت للغزو عصبة من الرولة "قوامها مئتان وثمانية وستون محارباً بقيادة رشيد بن وفا" إلى الحماد ومنطقة الوديان ضد بدو "شمّر" وخرجت بصحبتهم، وسرنا اثنتي عشرة ساعة في اليوم الأول. وفي المعسكر في تلك الليلة كنّا نتفحص معداتنا وقرب مائنا وما شابه ذلك. وكم كانت دهشتنا عندما اكتشفنا الأمير فوازاً

غارقاً في نومه ملفوفاً بخرج الجمل المصنوع من شعر الماعز. وهي أوعية ضخمة مصنوعة من جلود الماعز. لم تصدر عنه أية إشارة أو أي صوت خلال المسيرة الطويلة الشاقة تعلمنا أننا نحمل معنا متخفياً..) [١].

وأحمد وصفي زكريا قال عنه في كتابه "عشائر الشام": (وأما الأمير فواز بن الشعلان وأمه بنت سطام الشعلان، وهو عصري مدني في معيشته حسن الطلعة أنيق البزة، وفي سنة ١٩٤٢ م ورث عن جده الأمير النوري الشعلان رئاسة القبيلة العظيمة والثروة الجسيمة والنباهة والحرمة البالغة لدى العرب والفرنج في بلاد الشام وغيرها من البلاد التي يزورها، فقد زار الحجاز ومصر وأوروبا مراراً، كما زار في عام ١٩٤٢ م أمريكا يرافقه الأمير فاعور الفاعور وعلي بك الأطرش فلقي هو ورفاقه احتفاءً وترحاباً كبيرين من الأمريكان ولا سيما الجاليات العربية التي كانت تتقاطر من كل الولايات المتحدة لرؤيتهم وإكرامهم والأمير فواز ذو قدر كبير عند الشخصيات الأجنبية من فرنسيين وإنكليز الذين يترددون عليه. فيقيم لهم الولائم والحفلات في مضاربه الفخمة في قرية عدرا أو وسط الصحراء، فيرون عنده من بذخ الإمارة وكرم البداوة، وجمال المضارب والصحاري وروعتها، ما يدهشهم ويطلق ألسنتهم بالإشادة. وأقلامهم بوصف هذه المشاهد والذكريات العربية، وتسجيلها في مختلف الصحف والمجلات المصورة وغير المصورة في أوروبا وأمريكا) [٢].

---

(١) كارل الرضوان، الخيام السود، ص ٢٧-٢٦.

(١) عشائر الشام - ص ٣٨٠.

الوِلْد علي

الوِلْد علي، تلفظ كلمة "الولد" بكسر الواو وسكون اللام بمعنى بني علي أو أولاد علي، عشيرة عنزية صغيرة، وهي من ضنأ مسلم وبطن الوهب أو من بني وهب، وهم يغدون ويروحون بين بلاد الشام ونجد، وكثرتهم الغالبة اليوم في المملكة السعودية .

الولد علي هم أبناء أعمام الأحسنة الذين في حمص، لاعتبارهم من الوهب وأقارب الرولة باعتبارهم من ضنأ مسلم وبيت "السمير" من البيوتات البارزة في هذه القبيلة.

كان العداء والتناحر متواصلاً بين الولد علي والرولة رغم قرابتهما، وقد ازداد ذلك في عهد محمد بن دوخي بن سمير.

وأقدم ذكر في كتب الرحلات والتاريخ للولد علي هو ما جاء في رحلة السائح السويسري "بركهارت" حيث ذكر أماكن تواجدهم وتوزعهم. وقد قال عن شيخهم دوخي بن سمير: (يعدّ أقوى رؤساء عنزة.. وقوته نشأت من صلاته المتينة مع ولاة دمشق، لأن له عادة تقديم الإبل لركب الحج، وهو ينزل على بعد بضعة ايام عن دمشق، وفي سنة ١٨١٠ م لجأ إليه يوسف باشا والي دمشق لما هرب من دمشق..).

وفي مجموعة أسد رستم أستاذ التاريخ في الجامعة الأميركية كتاب تاريخه في صفر ١٢٤٨ هجرية من محمد علي باشا والي مصر إلى متسلم

دمشق، يحتم عليه استدعاء دوخي السمير شيخ عنزة، والتشديد عليه بوجوب القيام بما تعهد به، من نقل المهمات العسكرية، وعدم التعدي على السكان الآمنين..

هذا والقيادة العليا في الولد علي منذ القديم في أيدي أبناء سمير[1].

(١) للمزيد مراجعة عشائر الشام، وصفي زكريا، ص٤٠٤-٤٠٩.

محمد الدوخي ابن سّمير
«حريب الدول»

بعد قراءة هذا "البورتريه" ستتأكدون إلى ما بعد الأبد، بحقيقة وجديّة السمات الأخلاقية التي يشتهر بها البدوي ولعل أهمها "حماية الدخيل".

لن يكف الزمن عن تذوق النكهة الفريدة لحكاية ولشخصية محمد الدوخي ابن سمير ستستغربون هذه الحكاية وقد يعتقد بعضكم أنها حكاية هبطت من علياء ما.. !؟

نموذج فريد من العناد البدوي الخام، فقد أصرّ على تنفيذ العرف البدوي، في أصعب الظروف ولعل في لقبه "حريب الدول" ما يدل ويختزل سيرة هذه الشخصية الفريدة.

تعرض لذكره عدة رحالة ومستشرقين وورد اسمه في وثائق الخارجية البريطانية مرات عدة.

ذكر البارون أوبنهايم في كتابه "البدو": (حكم محمد الدوخي ما يقارب نصف قرن.. كان رجلاً مهيباً يبعث على الرهبة، فرض احترامه حتى على الموظفين الأتراك"[1] .

والليدي آن بلنت التقت محمد بن سمير وقالت عنه في كتابها "قبائل بدو الفرات": (ما إن ابتعدنا حتى مررنا بجماعة من الرجال والنساء والجمال

---

(١) أوبنهايم - البدو - ج١ - ص١٧٠.

تسير نحونا، وعند السؤال عنهم، علمنا أنهم من ولد علي - إحدى فروع العنزة - أصدقاء الرولة ولكنهم في صف "السْبَعة" في شجارهم الحالي. وشيخهم محمد الدوخي ابن سمير له أهمية معتبرة. أعتقد بأنه يتمتع بحماية القنصلية البريطانية في دمشق منذ سنوات، ومن المميزات التي يملكها ولا تزال سارية المفعول: احتكاره تفويض إيصال قافلة الحج سالمة إلى معان، ولهذا لا نود أن نظهر بين قومه بهذه السرعة قبل أن نحصل منه على رسالة مؤدبة، رجانا فيها أن لا نذهب بعيداً عن خيامه التي سينصبها على مسافة لا تبعد أكثر من ثلاثة أميال عن مكان مخيمنا السابق وحالاً فيما بعد ركب الشيخ بنفسه ليكرر دعوته بزيارتنا له، إننا لا نستطيع رفض مثل هذه الدعوة الجديدة لأننا كنا بشوق للتعرف محمد الدوخي لذلك نصبنا خيامنا مع خيامه.

محمد الدوخي يبلغ الخمسين من عمره، قصير القامة ممتلئ الجسم أشيب اللحية وعيناه سوداوان صغيرتان تلمعان وتعبران عن مزاج خاص، ووجهه لا يريح ومن الصعب على المرء أن يثق به ثقة تامة. ويقال أنه ارتكب أعمالاً وحشية غادرة في فترة من حياته، وعلى كل فهو بالنسبة لنا اليوم رجل ساحر من الطراز التركي المثقف أكثر من كونه بدوياً.

ألقى محمد الدوخي علينا خطابات مطولة مليئة بالترحيب مبدياً رغبته في خدمتنا وكنا في عسر لكي نقدم له عباءة، كانت العباءة جميلة من صنع القريتين، زرقاء غامقة إلى بياض ولكن بدون التطريزات الذهبية، فأرسلناها كالعادة مع "حنّا" ولكننا دهشنا لعودة العباءة، ثم جاء محمد نفسه إلى خيمتنا ليشرح لنا بأنه من غير الضروري لمسافرين مثلنا تماما وصلوا إلى هذه المناطق البعيدة من الحماد، أن يقدموا هدايا لأي شخص كان، فقد نحتاجها للآخرين أو لأنفسنا، ومن المناسب أن نقابل بهذا الاقتراح والذي نظنه من تدبير حنّا نفسه كيف حدث هذا ؟ لا أعرف ولكن بذلنا قصارى جهدنا لإقناع

مضيفنا بالاحتفاظ بالهدية دون جدوى. جلس معنا محمد الدوخي طوال فترة الظهر يروي الحكايات عن مختلف الأوروبيين الذين قابلهم، لأنه وقومه من ولد علي يمضون الصيف قرب دمشق، وهم على اتصال دائم مع المدينة، ولهذا فإني أعتقد أنه يملك الأخلاق الحسنة المهذبة، أما في شبابه فيروى أنه كان يتمتع بسمعة المحارب المعتبر، ولكنه فقد إحدى ذراعيه في الحروب وهو راضٍ الآن بتقديم المشورة العسكرية لقومه فقط. طرحنا على محمد الدوخي فكرة الصلح، وعن توقعات نجاح الصلح مع الرولة، فتبين من تعبيره عن نفسه إنه غير مبال بهذا الأمر، ووعد بمناصرة السْبَعَة ومساعدتهم في محنتهم لأنهم قد عوملوا معاملة سيئة من الرولة، إلا أنه ليس لديه أي خلاف شخصي مع ابن شعلان، وأعرب عن فرحته فيما لو سويت الأمور سلمياً[1].

تركي المصطفى يورد في كتابه "أعلام البدو" ترجمات لعدة وثائق من وزارة الخارجية البريطانية فورد ذكر ابن سمير في تقارير القنصل الانكليزي السيد روجرز حيث قال في تقريره الأول: (في ٢٨- حزيران ١٨٧٢ م – استقبلنا الشيخ محمد الدوخي زعيم عنزة في مضاربه قرب مزرعة عذرا ولم يقلّ احتفاله بنا عن الاحتفال الذي لقيناه من زعيم الرولة وذلك لوجود قسم من قبيلته في عدرا واستفاد الوالي من الأخبار والمعلومات عن قوتهم الحربية ويظهر أنه لو وضعت الضرائب عنهم وجندوا لأمكن إنشاء جيش مثل جيش القوزاق) .

في الوثيقة الثانية كتب المستر روجرز: (في ٨ كانون أول ١٨٧٤ م: أنّ عرب الغياث تعدوا على "ايريل ديربي" ونهبوا كثيراً مما كان يحوزه، فأرسل لهم الوالي إليهم رسالة بواسطة محمد الدوخي من قبيلة ولد علي وأتى

(١) قبائل بدو الفرات، ص ٣٥٦- ٣٥٧- ٣٥٨.

الشيخ مطلق الهواش والشيخ سلامة وديجل بن صوينه للاستماع إلى الرسالة المرسلة مع محمد الدوخي".

وفي وثيقة أخرى جاء فيها: (في ٥ - أيار - ١٩٧٣) أن المشير في الشام أرسل الشيخ محمد الدوخي رئيس قبيلة الولد علي المشهور بذكائه في بعثة سرّية إلى مسلمي حوران الذين كانوا ثائرين على الدولة بسبب الخدمة العسكرية التي فرضت على أبنائهم ولم يزد على ذلك شيئاً).

أما عن سبب لقبه الشهير "حريب الدول" فذلك أتى عقب قصة معروفة حدثت بعد أن لجأ إليه جماعة من أسرة الخديوي الحاكمة في مصر وقد لحق بهم ضيم من ولاة الأتراك فتوزع أفراد تلك الأسرة على قبائل "العنزة" مستجيرين من ظلم الأتراك. وكان الشيخ محمد الدوخي قد أجار بعضهم وقسم آخر من الأسرة كان يجيره الشيخ سطام بن شعلان شيخ مشايخ الرولة. حين علمت السلطات التركية بأماكن تواجد الدخلاء أرسلت في طلبهم مع مندوب يحمل رسالة رسمية تطلب تسليمهم للسلطة، محمد الدوخي قال للمندوب أنه لا يسلم مستجيراً وباقي رجل من ولد علي. عاد المندوب يحمل ذلك الرد المستفز إلى حكومته التي جهزت من فورها جيشاً كبيراً لملاقاة الولد علي في معركة طاحنة أبيدت خلالها كتيبة من جند الترك يقابلها مئة وخمسين رجلاً من الولد علي وعلى أثر تلك الهزيمة اختار الوالي المصالحة ودفع الدية والعفو عن دخلائه. وبعد ذلك عرف محمد الدوخي ابن سمير بحريب الدول لأنه حارب دولة ولم يسلم دخيله.

شـمّر

"شمّر" تكاد تسمع هذا الاسم يتردد في غالب المرويات الشفاهية للبدو ليس فقط في بادية الشام والجزيرة الفراتية، أيضاً في الذاكرة النجدية حيث أصول هذه القبيلة المحاربة والتي تميزت ذاكرتها بأسماء شخصيات تأكدت نجوميتها مع مرور الأيام التي لم تقدر على محوها.

ومن خلال كثير من أغاني الحداء الحربي الحماسي لدى البدو عامة نلمس قوة فرسان تلك القبيلة بحيث أنه أتى وقت كانت فيه السلطات العثمانية تتعمد أسر بعض رجال شمر لضمهم إلى صفوف الجيش بسبب قوتهم القتالية الذائعة الصيت. فمن المعروف أن أبناء البدو لم يعرفوا شيئا اسمه "الخدمة العسكرية" إلا في النصف الثاني من القرن العشرين[١]. وقبل هذا التاريخ لم يعرف أبناء البدو التجنيد الإجباري.

يذكرها وصفي زكريا بالقبيلة العظيمة التي تلي قبيلة عنزة بكثرة الجموع، ووفرة الفروع، ومنعة الجانب، وتمتاز بما لشيوخها آل الجربا من الأصول الراسخة، والأمجاد الباذخة، وذيوع الصيت بالبطولة، واتساع الملك والثروة، ولاسيما بالمواقف الوطنية المحمودة[٢] .

وأبناء هذه القبيلة يوصفون بكلمات: زينو المحازم، وعيون الحصن، وعقبان ديم، وسودان الروس، من أشد القبائل تعلقاً بالبداوة الصريحة، يقول

---

(١) أقصد مطلع حداء حربي شهير "عيال شمر لبسوهم عسكرية..".

(٢) وصفي زكريا، عشائر الشام، ص ٦١٢.

عنهم زكريا: (يعيشون على تربية الإبل والغنم، ويضربون في براري الجزيرة الفراتية، وينجعون طلباً للكلأ نجعة بعيدة تمتد من الشمال إلى الجنوب من قرب القامشلي إلى أراضي أبي غريب غربي بغداد، ومن الشرق إلى الغرب من جوار تل أعفر غلى ما بين الخابور والبليخ داخل البلاد الشامية والعراقية، ومن ثم كان بعض شمر من تبعة الحكومة العراقية (لواء الموصل) وبعضها من تبعة الحكومة الشامية (السورية محافظة الجزيرة).

وتختلف شمر عن عنزة بأنها قحطانية وعنزة عدنانية، وأنها ليست كعنزة من أرومة واحدة، بل هي مجموعة عشائر متنوعة ومتفرقة وكثيرة، بعضها يمت في أرومته إلى قبائل قحطانية أخرى بعيدة، أي أنها تتفق جميعا في الانتساب إلى نجار واحد هو القحطانية وإن بعدت فروعها، ومساكنهم الأصلية في نجد جبلا طيء "أجا وسلمى")[1].

يقال أن "شمر" آخر من خرج من القحطانيين من اليمن، وحيث وصلوا أنحاء جبلي "أجا وسلمى" فوجدوا فيها قبائل طيء وزبيد فدفعوهم، إلى بلاد الشام .

وعشائر شمر المتفرقة في الأصول والمنابت قد اجتمعت من بعد، وكونت مجموعة أحلاف قوية، ثم نزح قسم كبير منها إلى العراق والشام ،وبقي قسم في نجد، لكن العشائر الباقية في نجد، والعشائر التي نزحت إلى الجزيرة الفراتية، وإن كانت قد انفصلت جغرافياً، إلا أن بطونها وأفخاذها هناك وهنا واحدة، وصلة الرحم بينها محكمة.

إن هجرة عشائر شمر من أوطانها في نجد إلى ديار العراق والشام كانت متقطعة ومتتالية، كهجرة عشائر عنزة .

---

(١) المرجع السابق، ص ٦١٢.

ذكرهم غالب الرحالة الذين مروا بالمنطقة مثل نيبوهر ومولر وموزيل وبركهارت..

في عام ١٨٠٢ ظهر **فارس الجربا شيخ شمر** الذي عرف كيف يوحد بمهارة مصالح الأتراك ومصالح قبيلته. أوبنهايم يخلص إلى أن (حق شمّر في عبور الفرات هو أحد إنجازاته)[١].

وبعد فارس قاد شّمر ابن أخيه الشهير "**بنيّة**" **الشخصية الأسطورية** بامتياز في تاريخ شمّر، حيث تكثر المرويات التي تمجد كرمه وقوته وضراوته. "بنيّة" قاد شمّر مراراً وتكراراً إلى انتصارات شهيرة على قبيلة "عنزة" عدوها اللدود. قُتل بنيّة في معركة لملوم عندما انزلق حصانه على أرض بللها المطر الغزير. وقد عثر مقاتلي "المنتفق"[٢] عليه مصاباً بجراح شديدة، فأعطاهم اسمه ورجاهم استدعاء شيخهم. غير أن قائد المجموعة المعادية رفض رجاءه، لاعتقاده أن شيخه سيبقي عليه، وقتله بطعنة رمح، ثم قطع رأسه وأرسله إلى بغداد، حيث أمر الباشا بإلقائه إلى أسد، فلم يقربه الأسد واضطرب متقافزاً في قفصه ولم يعد إلى هدوئه إلا بعد أن أبعدوا الرأس عنه. (انتقل التمجيد غير المحدود، الذي خصت شمّر بنيّة به أثناء حياته، إلى ابنته عبطه، التي كانت تعقد اجتماعات استشارية كالرجال، وتفرض كلمتها كقانون)[٣]. بعد ذلك خضعت شمّر لثلاثة عقود لحكم صفوق، ابن فارس.

صفوق فرض سيطرته بقوة السلاح كعادة أسلافه، وتحت زعامته تمردت شمر على الأتراك في أكثر من مناسبة، مما دفعهم إلى وسيلة مجربة

---

(١) أوبنهايم، البدو، ج ١، ص ٢٣٦.

(٢) إمارة بدوية عربية كانت قائمة في عربستان .

(٣) أوبنهايم، البدو، ج١، ص ٢٣٨.

مع العشائر وهي تنصيب قريب للشيخ، شيخاً بديلاً، وبالفعل قام الأتراك بتعيين شلاش، ابن عم صفوق، كشيخ بديل، لكن شلاشاً قُتل في معركة مع عنزة وظل صفوق شيخاً أوحداً لشمر وبقي رجلاً مشبوهاً في نظر الأتراك، وتم اعتقاله وإرساله إلى القسطنطينية في عام ١٩٣٦ م وحين أطلق سراحه، عادت شمر تحت قيادته إلى عهدها في معاداة الأتراك، ومرة أخرى لجأ نجيب باشا بغداد إلى تنصيب شيخ بديل هو نجرس أحد أبناء عمومة صفوق. لكن صفوق قام بدعوة نجرس إلى خيمته بحجة التداول وهناك قتل منافسه الذي لم يخطر له أن شيخ شمر يمكن أن يخالف عادة عربية بدوية غيرقابلة للنقاش وهي: عدم الغدر بضيف كائنا من كان، والذي حدث عقب ذلك أن ما فعله صفوق بحق ضيفه وابن عمه نجرس، أخرج شمرا عن طاعة صفوق، وبعدها بمدة قليلة، قتل صفوق بتدبير من الأتراك .

ومن شيوخ شمر اللامعين "**عبد الكريم الجربا**" كان ابناً لصفوق بن فارس من زوجة صفوق الخاتون عمشة الطائية ابنة حسن شيخ طي.

لم يتعرض مؤرخ أو باحث لهذه الشخصية دون أن ترافق ذكره عبارات التوقير والاحترام لزعامته وفروسيته وإلى كونه سياسياً محنكاً قيلت فيه الكثير من القصائد التي مدحت خصاله التي تجسد البدوي النبيل بصيغته الرومانسية .

تربى عبد الكريم على كره الأتراك في كنف **الخاتون عمشة،** التي تذكرها الليدي آن بلنت بإعجاب في كتابها "قبائل بدو الفرات". كان عبد الكريم في الحادية عشرة من عمره عندما قتل أبيه صفوق غدراً من الخلف من مسدس بيد أحد رجال الوالي العثماني في بغداد.

وعندما علم بالأمر بعد ثلاثة أيام قرر أن يهجم على الوالي التركي ليقتله انتقاماً لمقتل والده، فتدخل قومه وحالوا بينه وبين ذلك لخطورة الأمر على فتى بالحادية عشر من عمره، فأقسم أن يبيد الأتراك أينما وجدهم.

الليدي آن بلنت التي زارت مضارب شمر ومع زوجها ولفرد وقابلت الخاتون عمشة روت ذلك على طريقتها: (كانت أهم شخصية بعد الشيخ فارس نفسه في هذه المضارب هي دون شك شخصية أمه الخاتون عمشة التي تشتهر بين القبيلة بلقب أم عبد الكريم. وأعتقد أن مناداتها بهذا الاسم له مدلوله وتأثيره السحري بين شمر، وكان بمثابة الشمس الساطعة، وعليهم بتبجيل المتوفى، لأن عبد الكريم في الحقيقة بطل من أبطال شمر.. لقد كانت حياة عبد الكريم حياة بطولة "رومانسية" يصعب أن تجد مثيلاً لها) [١].

أما كرم عبد الكريم فقد زاد من خصاله التي لم تنسى بعده وظلت تذكر كمضرب للكرم، (وقد اشتهر الشيخ عبد الكريم الجربا بسخاء الكرم وحبه للعطاء ورحمته وما سئل شيئا إلا وقال "خوذه" أي "خذه" فكان أشهر ألقابه "أبو خوذه")[٢].

انتهت حياة هذا الفارس النبيل وهو في عمر الثامنة والثلاثين عندما لم يوفر الأتراك وسيلة أو حيلة أو مكافأة مالية ليقبض عليه وبالفعل وقع بيد الأتراك ومات شنقا. وبموته تمكن شقيقه الأكبر فرحان بالتمتع بحقوقه، بعد أن تلقى في السبعينات لقب الباشوية وراتباً شهرياً من الحكومة التي كانت ترضى عليه بفضل طباعه الحضرية المهادنة، لكنه لم يهنأ كثيراً بكونه بدون منافسة حيث بزغ شقيقه الصفر فارس، الذي تربى لدى شمّر نجد، وكان يتمتع بشعبية كبيرة لا حد لها لدى شمر البادية، في حين كان الأتراك قد

---

(١) الليدي آن بلنت، قبائل بدو الفرات، ص ٢٥٨.

(٢) تركي المصطفى، أعلام البدو في سورية، ص ١٧٩.

عينوا شقيقه الأكبر فرحاناً كشيخ معترف فيه من قبل الأتراك دون أن يكترثوا لحقيقة أنه لم يكن يتمتع بشعبية شقيقيه، عبد الكريم ومن بعد فارس، الذي قابلته الليدي آن بلنت في مضاربه في الجزيرة واستفاضت في شرح مناقبه النبيلة: (وصلنا إلى خيمة كبيرة عند منعطف الوادي تقوم على سبعة أعمدة، عرفنا من حجمها أنها لا بد وأن تكون خيمة الشيخ، كانت تنتصب وحولها مجموعة لأمن الخيام، حيث يأخذ الوادي بعدها بالاتساع نحو السهل، فركبنا إليها دون إعلان مسبق، وبدأنا نشعر لأول مرة بقلق عن طبيعة الاستقبال الذي يمكن أن يستقبلنا به الرجل الذي جئنا من ديار نائية لنراه ولكن لا داعي للقلق، فالقوم شاهدونا وتسابق الخدم لاستقبالنا، وهم يهمون لمسك أرسان خيولنا، بينما كل هؤلاء الذين في الخيمة وقفوا على أقدامهم، وردوا سلامنا بصوت مطمئن. أقبل فارس في هيئة شاب طلق المحيا وسيم التقاسيم من الخيمة الداخلية، وحيانا بابتسامة كانت تنطوي على شرف كبير ونية طيبة، وشعرنا في الحال أننا في أمان بين يديه. أمرنا فارس بالجلوس وأراحنا على الفرش والوسائد، وجلس بنفسه إلى جانبنا مصغياً إلى تحياتنا التي رد عليها بأحسن منها، فانسابت تحياته رائعة من إنسان يعود لأصول نبيلة. على الرغم من هذه العبارات التقليدية في بلاد الشرق فقد كانت كلماته تنطوي على صدق كبير في كل حرف ينطقه، وطريقته كانت تختلف عن طريقة أي شخص قابلناه حتى الآن في البادية، لأنها كانت صريحة وقلبية من شخص يثق من نفسه ومن مكانته في قومه، وقادر على التصرف دون إحراج أو تصنع كما يفعل البدو عندما يلتقون الغرباء، وبندر أن نجد رجلاً بهذه الصفات إلا ذوي الأصل والنبلاء) [1]. بلنت تتحدث بإسهاب عن عائلة فارس وأحوال القبيلة في ذلك الوقت من القرن التاسع عشر عام ١٨٧٨ م .

---

(١) بلنت، ص ٢٥٧.

توفي فارس[1] عام ١٩٠٢. وبما أن أولاده كانوا فتياناً صغار السن، فقد ذهبت السلطة إلى نسل فرحان، الذي سبق أن توفي بدوره عام ١٨٨٠م، تاركا وراءه عدداً كبيراً من الأبناء، تنافسوا لوقت طويل على التركة والقيادة التي ظفر بها أخيراً "عاصي" الابن الأكبر لفرحان .

(١) يقع قبره في الطايره غير بعيد عن نصيبين.

دهام الهادي الجربا

الشيخ دهام من أبرز زعامات واشتهر بنباهته ومواقفه الصلبة، شيخ شمر في سورية وأحد نائبي شمر في البرلمان السوري، وفي الحرب العالمية الثانية تذكر الانكليز ثوراته السابقة عليهم في بدء احتلالهم العراق، وتفادياً لأية مشاكل تحمل طابع العصيان والتحريض على الثورة - كانت الحكومة الانكليزية تخشى كثيرًا من قوة شمر الضاربة - قاموا بترتيب أمر نفي الشيخ دهام الجربا مع غيره إلى جزيرة قمران وسط البحر الأحمر، وظل فيها قرابة سنتين إلى أن عفي عنه وأعيد .

فبداية اعترف به العراقيون والإنكليز باسم "شيخ مشايخ شمر"، لكن دهام لم يسالم الإنكليز في بدء الاحتلال، بل نازعهم وعاركهم مراراً، فقصفته طائراتهم في سنة ١٩٢٢ م واضطرته للالتجاء إلى الأراضي الشامية، مع قسم من شمر التي ظلت وفية له، فيما أسند الإنكليز والحكومة العراقية رئاسة شمر في العراق إلى ابن عمه عجيل الياور، فتألف من جراء ذلك جمع جديد من شمر ضمن بلاد الشام سماه الفرنسيون "شمر الحدود" لقربه من الحدود، وفي ظل تلاعب كل من الإنكليز والفرنسيين بمنصب "زعامة القبيلة" ظل الشيخ دهام نافراً من ابن عمه عجيل الياور لقيامه مكانه في العراق، إلى أن تم الصلح بينهما في مؤتمر عانة ١٩٢٨ م.

ما يشبه.. خاتمة

يتحدث العالم الفرنسي الشهير كلود ليفي شتراوس في غالب مؤلفاته، عن أهمية تلك الرابطة بين فقدان الاسم وفقدان الذاكرة، وأن امحاء الاسم هو "معاداة الذاكرة". لهذا يمكن اعتبار أن انتقال أسماء الأعلام وأسماء الأسر، مع ذاكرة الأنساب حتى ولو شفاهة أي دون تدوين، فإن ذلك واحد من أدوات الذاكرة الكثيرة، التي تصون كيانها خلالها وهذا ما ينقذها من اعتباطية مرور الزمن .

وإن اكتشاف اسم جديد وإضاءته من جديد هذا يعني إخراجه من النسيان ومنحه ميلاداً جديداً .

والذاكرة التي يصعب أو يتعذر تدميرها أو إقصاؤها، هي "ذاكرة الاسم والشهرة"، لا أجمل أن يتذكر الأحياء "موتاهم الفريدين" ليس سهلاً أن تمنّ "الحياة" على أحدنا باسم "جدّ" مميز وبارز، فيكون لدينا من نتذكره أو نذكره.. من خلال علاقة نقيمها مع الزمن. لا غرابة أن الإغريق جعلوا للذاكرة آلهة "وحدها تتيح أن تصل بين ما كنا عليه، وبين ما نحن عليه، وما سنصبح عليه".

إعادة التخزين، وتنظيم المعلومات وحفظها بين وقت وآخر، بمثابة إعادة تنشيط للتذكر والتعرف مجدداً على من "كانوا" قبلنا.

وكما يؤكد الفيلسوف بول ريكور: إن المحافظة على الذات عبر الزمن تقتضي، تحريم النسيان.

وكلمة أخيرة أنتزعها من أوراق لآرثر شنيتلر حين يقول: (تزييف الذكرى هو الانتقام العاجز الذي تستمده ذاكراتنا من سمة اللا رجوع التي يتصف بها كل ما يحدث..).

وهنا من خلال انتقاء الأسماء الواردة في الكتاب لم أنتق تلك الأسماء بعينها إلا لأنها فرضت حضورها كأسماء "صميمية " في التاريخ القبلي للبادية السورية، والوثائق تثبت ذلك. رغم أن التاريخ نفسه لم يكن على مر الأزمان بريئاً من ضروب التلاعب بالذاكرة لغايات ذات علاقة بالهوية .

ومن باب الطرافة والضرورة أن أذكّر "**بكليو**" ربة التاريخ الإغريقية، و"**كليو**" كما تؤكد الميثولوجية الإغريقية ابنة "منموزي" ربة الذاكرة، وهذا يعني أنه من مسلمات التاريخ البشري: أن الذاكرة هي المادة الأولية للتاريخ. واعتماد الوثيقة من شأنه أن يخلصنا من وجدانيات الوفاء ودغدغة الكبرياء، ما يمكّن من إضفاء الصفة المثالية، والخرافة التي من شأنها أن تصنع آلهة بعد الموت .

الفهرس

الصفحة

ما يشبه مقدمة «مرض الأرشيف» ٧
قانون إلغاء نظام العشائر ٢٥
هذا الكتاب ٢٧
قبيلة الموالي ٢٩
حسام الدين مهنا أمير العرب بالشام ٣٧
عساف البوريشة ٣٩
حيّار بن مهنا البوريشة ٤١
الأمير مدلج بن ظاهر ٤٣
الأمير أحمد بك الأبو ريشة ٤٥
الأمير طراد العبد الإبراهيم ٥١
أمراء.. وسير ٥٣
الحديديون ٥٤
صالح الجرخ ٥٧
فيصل النواف الكرخ ٦٠
الحْسَنَة ٦٤
فارس بن مهنا بن فاضل بن ملحم آل مزيد ٦٧
محمد الملحم ٦٨
طراد الملحم ٧٢
العْقيدات ٨٣
رمضان باشا الشلاش - روبن هود ٨٥

الصفحة

مشرف الدندل ٩٧
الفدْعَــان..... ١٠٠
جدعان بن مهيد ١٠١
تركي بن مهيد.. الحضَّاب ١٠٥
مجحم بن مهيد..... ١٠٨
حاجم بن مهيد ١١٢
الولْــدَة..... ١١٧
الرْوَلَــة..... ١١٩
الدريعي ابن شعلان..... ١٢٢
نوري الشعلان ١٢٧
فواز الشعلان..... ١٣١
الولِْــد عــلي ١٣٤
محمد الدوخي ابن سْمير «حريب الدول» ١٣٦
شــمّر..... ١٤٠
دهام الهادي الجربا ١٤٧
ما يشبه.. خاتمة ١٤٨

الطبعة الأولى / ٢٠١٣م

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

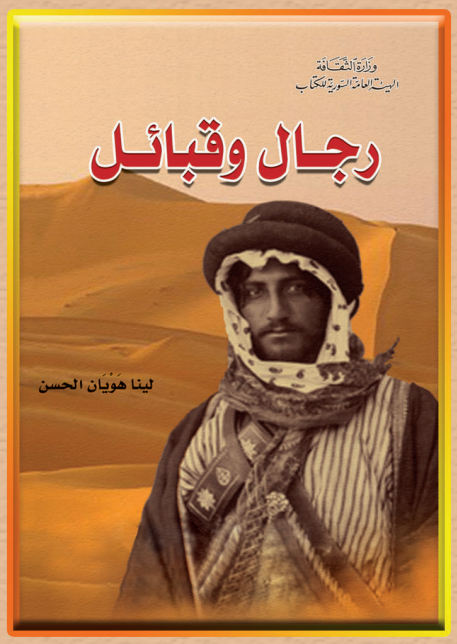

رجال وقبائل

الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة

www.syrbook.gov.sy
E-mail: syrbook.dg@gmail.com
هاتف: ٢٣٢١١٦٤
مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٣م

سعر النسخة ١٣٠ ل.س أو ما يعادلها